محاضرات (٣/ ٣-٤)

وقفات مع كلمات
لابن مسعود
(عهد ابن أم عبد)

لفضيلة الشّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنعم علىٰ عباده المتَّقين بالتوفيق إلىٰ الطاعة، وأنعم عليهم بقبولها منهم بعد التوفيق، وأنعم عليهم بمجازاتهم عليها يوم العرض عليه، فالحمد لله الذي تفضل وأنعم، وتكرَّم وأعطىٰ بغير حساب.

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، لا ربَّ لنا سواه، ولا معبود لنا غيرُه، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسولُه، وصفيه وخليله، نشهد أنه بلغ الرسالة، وأدَّىٰ الأمانة، ونصح الأمة وجاهد في الله حق الجهاد، فلا خير إلا دلها عليه، ولا شر إلا حذرها منه، فتركها بعده ﷺ علىٰ طريق واضح نهج بين لا يزيغ عنه بعده ﷺ إلا هالك.

اللّٰهمَّ صلِّ علىٰ محمد كفاء ما أرشد وعلم، اللّٰهمَّ صلِّ علىٰ محمد، وعلىٰ آل نبينا محمد، وعلىٰ زوجاته، وعلىٰ صحابة محمد ﷺ تسليمًا كثيرًا.

أما بعد..

فإنّ من القصور الذي يعانيه الناس اليوم أنهم يعلمون كلام أهل العصر أو أهل العصور التي يعيشونها ويُقَصِّرون في تتبُّع ومعرفة وتدبر كلام سلفنا الصالح.

وكلام السلف قليل كثير الفائدة، وكلام الخلف كثير قليل الفائدة، كما قال ذلك ابن رجب عبد الرَّحمٰن بن أحمد الحنبلي -رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ- في كتابه العظيم «**فضْل علم السلف علىٰ علم الخلف**».

وأساس ذلك أن السلف كانوا إذا تكلموا اقتفوا في كلامهم أثر النبي ﷺ، والنبي عليه الصلاة والسلام كان يوجِز كلامه، وقد أوتي جوامع الكلم، وهي الكلمات القليلة التي تحوي المعاني الكثيرة، فتجد صحابة رسول الله ﷺ لهم من الكلمات ولهم من الوصايا ولهم من الخطط ولهم من الرسائل التي يوصي فيها بعضهم بعضا ما هو قيل الكلمات قليل الحروف، ولكن من تدبَّره وجد تحت كل جملة العجب العجاب من تفرُّع المعاني وكثرتها وقوتها.

وصحابة رسول الله ﷺ طبقات، ومنهم المهاجرون الذين أسلموا قديما وصحبوا رسول الله ﷺ في مكة، ومن هؤلاء خاصة رسول الله ﷺ وصاحب نعليه وصاحب طَهوره: **عبد الله بن مسعود الهُذلي** المتوفىٰ سنة اثنتين وثلاثين للهجرة (٣٢هـ).

عبد الله بن مسعود أو ابن أم عبد كما كان عليه الصلاة والسلام يناديه، كان ممَّن أسلم في مكة، وصحب الرسول ﷺ في مكة، وسمع القُرآن أول ما أنزل وحفظ القرآن، حتىٰ إنه كان يقول: **لو أني أعلم أن علىٰ الأرض أحد يعلم في كتاب الله جل وعلا أكثر مما أعلم، تبلغه المطي لرحلتُ إليه**.

وكان يحفظ القرآن وكان أقرأ الصحابة رضوان الله عليهم، وقد قال فيه عليه الصلاة والسلام: «**من سره أن يقرأ القرآن غضّا طريا كما أُنزل فليقرأه علىٰ قراءة ابن أم عبد**» يعني عبد الله بن مسعود.

قال له عليه الصلاة والسلام مرة: «**يا عبد الله اقرأ عليَّ القرآن**». قال: أأقرأ عليك يا رسول الله وعليك أنزل؟ قال: «**إني أحب أن أسمعه من غيري**». فافتتح عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سورة النساء فمرّ حتىٰ أتىٰ قوله جل

وعـــــلا: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ ﴾[النساء]، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : «**حسبك**» .يعني يكفي، قال عبد الله بن مسعود: فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان عليه الصلاة والسلام.

ابن مسعود وصىٰ به عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ، وصىٰ الأمة أن تأخذ بعده، وأن تقتفي أثره.

فقد صحَّ عن النبي ﷺ فيما رواه الإمام أحمد والحاكم وغيرهما أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «**تمسكوا بعهد ابن أم عبد**». يعني إذا عهِدَ إليكم عهدا فتمسكوا به.

وصح عنه أيضا عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**رضيت لأمتي ما رضي لها ابن أم عبد**».

وصح أيضا عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**قد رضيتُ لكم ما رضِيَ لكم ابن أم عبد**».

ولهذا كان ابن مسعود صاحب وصايا، يوصي، ووصاياه -كما أسلفتُ- جمعت بين الكلام القليل والمعاني الكثيرة، وسيأتينا ما يدل علىٰ ذلك.

كان وَرِعا خاشعًا، كان فلّاءً للقرآن عاملا به، آمرا به ناهيا.

فهو الذي يقول: **إذا سمعت ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فأَرْعِها سمعك، فإنها خير تؤمر به، أو شر تنهىٰ عنه.**

وهو الذي يقول في أهل القرآن: **ينبغي لصاحب القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون.**

وهو الذي أوصىٰ في القرآن بقوله: **لا تنثروه نثر الدَّقل، ولا تهزوه هز الشعر، قِفُوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب.**

فكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ له أصحاب، وكان يوصيهم بوصايا حُفظت لنا، وكان أصحابه علىٰ هيئته يترسَّمون خطاه ويهتدون بهديه، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أشبه الناس هديا وسمتا ودلًّا بالنبي ﷺ؛ يعني أنه كان حريصًا علىٰ السنة، ولهذا كان أشبه الناس بالنبي عليه الصلاة والسلام.

[الوصية الأولىٰ]

كان له أصحاب، وهكذا العالم الداعي لا بد أن يتأثر به الناس، ومع ذلك كان مربِّيًا حتىٰ في إمامته وصُحبته.

رآهم مرة يتبعونه، ورأىٰ العدد كثر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال لهم كلمته التي هي فاتحة الكلمات ستتدبر فيها من كلمات ابن مسعود قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لهم قال:

لو تعلمون ذنوبي ما وطئ عقبي اثنان، ولحثيتم التُّراب علىٰ رأسي، ولوددت أن الله غفر لي ذنبا من ذنوبي، وأني دُعيت عبد الله بن روثة.

أخرجه الحاكم وغيره.

يقول لأصحابه: (لو تعلمون ذنوبي ما وطئ عقبي اثنان) وفي رواية أخرىٰ قال: لو تعلمون -يقسم ويقول- والله الذي لا إلٰه غيره لو تعلمون علمي لحثيتم التراب علىٰ رأسي.

وهذه الكلمات مدرسة ولا شك؛ لأنَّ البروز في الناس متوقع، إذا تميز أحد في الناس بشيء، ربما عظّموه، وربما مدحوه، وربما تتابعوا خلفه يمشون، والمرء كلما ازداد علمه بالله جل وعلا علِم أنَّ ذنوبه كثيرة كثيرة كثيرة، ولا عجب أنْ أوصىٰ النبي ﷺ أبا بكر -وهو أفضل هذه الأمة من صحابة رسول الله ﷺ، الصديق الذي قال فيه النبي عليه الصلاة والسلام: «**لو وُزن إيمان أبي بكر بإيمان الأمة لرجح إيمان أبي بكر**»- علَّمه النبي ﷺ أن يدعو آخر صلاته بدعاء فيقول فيه: «**ربي إنِّي ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت**». القائل الموصِي النبي ﷺ، والموصَىٰ أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه ، «**ربي إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك**»، كلما ازداد علم المرء بربه خشي الله جل وعلا، وخشي أن يطأ عقبه اثنان، خشي أن يعظم في الخلق، خشي أن يُرفع في الناس؛ لأنَّه يعلم من الله جل وعلا، ومما يستحقه الله جل وعلا ما يوقن بأنه لن يبلغ أن يوفِيَ الله جل وعلا حقه، فيكون مقصرا في الشكر، وذلك ذنب من الذنوب.

قال ابن مسعود: لو تعلمون ذنوبي ما وطئ عقبي اثنان. يشتهر الناس:

فمنهم القارئ للقرآن، يشتهر بحسن قراءته، وبحسن صوته، فيجتمع عليه الناس.

منهم العالم يشتهر بعلمه، وبفتواه، وبصلاحه، وبورعه، فيجتمع عليه الناس.

ومنهم الداعية يشتهر ببذله للناس، ويجتمعون حوله بما هداهم الله جل وعلا به إلىٰ الحق.

ويشتهر من يؤدي الأمانة.

ويشتهر من يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المعروف، وهكذا.

ومقام الشهرة مقام مزِلَّة عظيمة.

ولهذا ابن مسعود أوصىٰ وصية علىٰ نفسه يبين فيها حاله، ويبين فيها ما يجب أن يكون عليه كل من كان له تبع، فيقول: لو تعلمون ذنوبي ما وطئ عقبي اثنان ولحثيتم التراب علىٰ رأسي. لابد فيمن كان علىٰ شهرة، أو كان ممن ينظر إليه الناس أن يحتقر نفسه دائما بينهم، ويظهر ذلك لا ليرتفع بينهم، ولكن ليرتفع عند الله جل وعلا، ومدار ذلك الإخلاص، **فإن من الناس من ربما يزدري نفسه أمام الناس ليظهر بينهم**، وهٰذا من الشيطان، ومنهم من يزدري نفسه بين الناس والله جل وعلا مطلع علىٰ قلبه أنه صادق في ذلك، يخشىٰ لقاء الله جل وعلا، يخشىٰ يوم يوفىٰ ما في الصدور يوم يُطَّلع علىٰ ما في القلوب، ولا تخفىٰ علىٰ الله خافية، ولا يكتمون الله حديثا.

هذه عبرة من العبر يتنبَّه لها كل تابع وكل متبوع.

أما التابع فينتبه إلىٰ أن هذا المتبوع يجب أن لا يعظَّم، وإنما يستفاد منه بما يبلِّغ علىٰ الله جل وعلا، أو بما ينفع به الخلق، وأما التعظيم فإنما هو لله جل وعلا، ثم لرسوله ﷺ، وأما باقي الخلق فلهم إذا صلحوا المحبة في النفس، وينبغي علىٰ من اشتهر أن يكون دائما خاشعا ذليلا ذاكرا ذنوبه، ذاكرا مقامه بين يدي

الله، ذاكرا أنه ليس بأهل أن يطأ عقبه اثنان، وأن يتبعه اثنان.

ولهذا لما مُدح أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بين الناس، وخطَب بعد ذلك، صح عنه فيما رواه أحمد وغيره قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقولها علنًا: **يقول اللّٰهمَّ اجعلني خيرا مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون**. ينبه الناس أن عنده ذنوب، حتىٰ لا يغلو الناس فيه.

فهل يستقيم هذا مع ما نرىٰ من أحوال يزيد فيها المعظَّم تعظيما لنفسه، ويزيد فيها المعظِّم تعظيما لمن عظمه واتبعه، ليس هٰذا من هدي الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم م، عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ربما أعجبته نفسه وهو خليفة، وهو الذي بعد أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في التبشير بالجنة فأخذ يحمل الشيء في السوق علىٰ رأسه ليزدري نفسه حتىٰ لا تتعاظم بنفسه.

ومن أبواب الخطايا العُجب والتعاظم أن يرىٰ المرء نفسه معظَّما.

كان من السلف الصالح من إذا أتىٰ ليلقي شيئا، فرأىٰ الناس اجتمعوا تركهم، لم؟ لأن صلاح نفسه ألزم عليه من صلاح الناس، لما رأىٰ هذا الجمع اجتمعوا، ورأىٰ أن نفسه بدأت تعالجه في أن هؤلاء حضروا، وهؤلاء أنصتوا، وهؤلاء فعلوا، وأقبلوا عليه، عالج نفسه بتركهم، فيقولون عنه ما يقولون؛ لكن أهم الأمر أن يكون صالحا قلبُه فيما بينه وبين ربه، وصلاح قلبك أهم من صلاح قلب غيرك، فينبغي عند ذاك مجاهدة النفس في هذا المقام.

إذن فهذه الوصية من ابن مسعود حيث يقول: والله الذي لا إلٰه إلا هو لو تعلمون علمي لحثيتم التراب علىٰ رأسي.

وهذه نرجو أن يتذكرها كل من كان له بعض شهرة بين الخلق، معلم، أو عالم، أو قارئ، أو آمر ناهي، أو مسؤول في جهة، أو أمير، أو ملك، إلىٰ آخره من أصناف الناس، ينبغي أن يكون مزدريًا لنفسه حتىٰ لا يتعاظم قلبه عليه، فيخسر الدنيا والآخرة. هذه وصية، وهي وصية بليغة تحتها معان كثيرة، وفيما ذكرنا إشارات، وتحت الإشارات عبارات، وتدبر تجد ذلك.

[الوصية الثانية]

الوصية الثانية والكلمة الثانية عن ابن مسعود ما رواه البخاري في صحيحه عنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، ورواه مسلم أيضا ولم يخرج لفظ كلام ابن مسعود قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

إن المؤمن يرىٰ ذنوبه كأنه قاعدٌ تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرىٰ ذنوبه كذباب مرَّ علىٰ أنفه فقال به هكذا فذبَّه عنه.

إن المؤمن يرىٰ ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرىٰ ذنوبه كذباب مر علىٰ أنفه فقال به هكذا–أي بيده– **فذبه عنه.**

مقام الناس في الذنوب مقامان:

- مقام المؤمن يُذنب.

- ومقام الفاجر يُذنب.

المؤمن يعمل الطاعات وهو وَجِلٌ قال جل وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾[المؤمنون]، ما معناها؟ يعني الذين يصلُّون ويتصدقون ويزكون ويصومون ويخافون أن لا يُتقبل الله منهم، هذا في الطاعات، فكيف إذا أذنب ذنبا ماذا يكون حاله قال ابن مسعود: **إن المؤمن يرىٰ ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه.**

وهذه الحال التي ينبغي أن نكون عليها، أن نتعاظم أن نذنب في حق الله جل وعلا، نُذنب في التفريط في الفرائض، التفريط في الصلوات، التَّفريط فيما يجب في الصيام، التفريط في أداء الزكاة، التفريط في أداء حقوق الخلق؛ في المعاملات، في الكسب، في الغش، في أداء الأمانة، في معاملة الأهل، في معاملة الوالدين، في عدم العقوق، في الإتيان بالخيرات، إذا ازداد علمك فسترىٰ أن الله جل وعلا عليك في كل لحظة تتحركَها أمر ونهي، إما أن يكون في عمل الجوارح، وإما أن يكون في عمل اللسان، وإما أن يكون في عمل القلب، في كل لحظة في حياتك فلله جل وعلا عليك أمر ونهي.

حتىٰ لو جلست ساكنا، فالقلب إما أن يتحرك في معاص؛ معاصي القلوب من الكبر وظن السوء، أو أن يدبر مثلا، أو يعمل عملا يرتِّب له من الذي لا يجوز، أو يفكر كيف يأخذ ما ليس له بحق، أو.. إلىٰ آخره، فإن هذه ذنوب إذا عمل بها بعد خاطر القلب.

ومنها ذنوب قلبية ولو لم يعمل مثل ترك التوكل، مثل ترك الصبر، مثل العجب مثل الرياء ، إلىٰ آخره.

فلله جل وعلا عليك في كل تحريكة لك وكل تسكينة له عليك أمر نهي، ولابد أن يقع منك الغفلة والغفلة والغفلة.

فالمؤمن يكون خائفا وجلًا يرىٰ ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه.

ولهذا يحذِّر الناس من ذنوبه ومن أن يغتروا به، وأيضا يحذر هو أن يُختم له قبل أن يستغفر، يحذر أن يكون من الموسوسين الثرىٰ قبل أن يُحدث توبة واستغفارا.

فلهذا يكون المؤمن مع هذا القول علىٰ حذر شديد يتبع ذلك الحذر كثرة الاستغفار، ولهٰذا النبي عليه الصلاة والسلام كان يستغفر الله جل وعلا في اليوم والليلة أكثر من مئة مرة، وفي المجلس الواحد سبعين أو مائة مرة عليه الصلاة والسلام، وهكذا كان حال الصحابة، هذه حال المؤمن حال الخوف، فهو يخاف الذنوب يرجو رحمة الله جل وعلا.

أما الفاجر الذي يعمل بالمعاصي بلا حساب، فيقع في الذنوب الكبيرة كبائر الذنوب وفي الموبقات وفي البدع، وفي ترك السُّنن، وفي الأخذ بالرأي وترك الأثر، وغير ذلك من الذنوب، وهو لا يشعر بها؛ بل كأنها ذباب مر علىٰ أنفه فقال به هكذا.

المؤمن رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأن الصلاة إلىٰ الصلاة مكفرات لما بينهما، ورمضان إلىٰ رمضان مكفرات لما بينهما، والعمرة إلىٰ العمرة مكفرات لما بينهما؛ لكن بشرط تُجتنب الكبائر، كما قال جل وعلا: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾[النساء]، فشَرَط لتكفير

السيئات أن تُجتنب الكبائر، فالصلاة إلىٰ الصلاة مكفرات؛ لكن هل كل صلاة مكفرة؟ ليس كذلك؛ بل من الصلاة ما يفعلها العبد ولا تكفِّر ذنوبه، كذلك من الصيام ما يصومه العبد -يعني رمضان- ولا يكفر ذنوبه، ومن العمرة ما لا يكفر به الذنوب، فلكل عبادة من هذه العبادات شرط أن تكفِّر السيئات.

فمثلا في الصلاة ثبت عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**من صلَّىٰ الصلاة فأتم ركوعَها وسجودَها وخشوعَها كانت له كفارة فيما بينها وبين الصلاة والأخرىٰ ما اجتنبت الكبائر**».

الوضوء تتقاطر مع الماء الذنوب، لكن كما قال عليه الصلاة والسلام فيما صح عنه «**من توضأ كما أمره الله**».

العمرة كذلك.

ولهذا من رحمة الله أن نوّع؛ جعل الصلاة إلىٰ الصلاة مكفرات، من الناس من يبقىٰ عليه شيء فلا تكفرها صلاته فيكفره رمضان، من الناس من لا يقوم له رمضان بالتكفير فتكفرها الجمعة إلىٰ الجمعة، منهم من لا تقوم له الجمعة فتأتي العمرة فتكفّر ما بينهما من الكبائر، فيكون المرء علىٰ وجَل من فعل المعاصي.

فكيف إذا كان ما يفعل الكبيرة؟ من الكبائر -الزنا وشرب الخمر والربا والسحر- وهذه يتنكب عنها الصالحون؛ لكن ثم كبيرة يغشاها الصالحون، ومنهم من لا يشعر بها، أو لا يكون كما قال ابن مسعود في خصلة الفاجر: **كذباب مر علىٰ أنفه فقال به هكذا.**

وهذه الخصلة وقع فيها الأكثرون في هذا الزمن ألا وهي الغيبة، والغيبة من الكبائر؛ لأن الله جل وعلا قال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ﴾[الحجرات:١٢]، قال العلماء: جعل الغيبة كأكل الميتة وأكل الميتة كبيرة فدل علىٰ أن الغيبة من الكبائر.

والنميمة والبهتان هٰذه من الكبائر.

فالغيبة أن تذكر أخاك بما يكره، الصلاة إلىٰ الصلاة مكفرات ما اجتنبت الكبائر فهل نخاف أو نطمئن؟! ! الله المستعان.

إذا لم تجتنب هذه الكبيرة فالصلاة إلىٰ الصلاة ليست بمكفرة.

فكيف إذا ازداد علىٰ الغيبة أن تكون بهتانا، الغيبة ذكرك أخاك بما يكره، قالوا: يا رسول الله أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته**»، والبهتان أعظم إثما من الغيبة، وهٰذه من الناس من يغتاب ويتكلم بلسانه ولا يخاف، كذباب مر علىٰ أنفه فقال به هكذا، وهي أكثر ما تكون في الصالحين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: **إن الصالحين يجتنبون كبائر الذنوب مثل الزنا أو شرب الخمر والسرقة؛ ولكنهم يقعون في ذنوب اللسان والقلب.**

يتعاظم بقلبه، يتجبّر، يتكبر، يمرّ به أحد فيستصغر ذاك ويعظّم نفسه، ولو علم الحقيقة لربما كان ذلك الذي ازدراه أعظم عند الله جل وعلا منه، فالمرء ينبغي أن يكون حسيبا علىٰ نفسه، يجلس الناس

مجالس طويلة يغتابون فيها.

والغيبة درجات، وأعظمُها أن يغتاب من له الحق عليه من أهل العلم ومن الوالدين ونحو ذلك، «**فإن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته**»، والله المستعان.

هذه ذنوب فتأمل هذه الكلمة، ولا تغترّ بأنك صاحب طاعة، وتنظر إلىٰ نفسك وأنّك وأنك لا تحس بالذنوب التي تغشاها وأنت لا تشعر، لقصور علمك.

أما الرجل إذا علم، أما المسلم أو المسلمة إذا علمت أمر الله فإنه سيكون في القلب الخشية: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر:٢٨]، فإذا أذنب ذنبًا كان القلب وجلا خائفا، لا يدري ما الله جل وعلا يصنع فيما فعل من الذنب، الذي قد يكون ذنبا لسانيًا، وقد يكون ذنبا قلبيا، وقد يكون ذنبا من ذنوب الجوارح.

إذن هذه الوصية مدارها أن تعظِّم أمر ذنبك، ولا تُخفِّف أمر الذنب، فإذا عظمته، وكأنك قاعد تحت جبل تخشىٰ أن يقع عليك، فإنك ستسعىٰ إلىٰ طلب المغفرة، ستسعىٰ إلىٰ التوبة، ستسعىٰ إلىٰ مفارقة الذنوب وأن تُلِظَّ بالله جل وعلا إن يعفو عنك ويتسامح، وهذه عبادات تلوىٰ العبادات.

[الوصية الثالثة]

ومن كلمات ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه يقول لأصحابه:

اعتبروا الناس بأخدانهم، فإن المرء لا يخادِن إلا من يعجبه.

وهذا مأخوذ من قول النبي ﷺ الحديث الصحيح المروي في السنن «**المرء علىٰ دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**» صحيح كما قال ابن مسعود: المرء لا يخاف إلا من يعجبه. يعجبه في تصرفاته، يعجبه في عقله، يعجبه في تفكيره، فإذا رأيت أحدا يخادن أحدا؛ يعني صديقا له، ملازما له، محبا له، فاعتبر هذا بذاك؛ فإن الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف.

(فاعتبروا الناس بأخدانهم) وهذا ما يدل علىٰ ذاك.

فمن جهة الأعمال إذا رأيت من يغشىٰ المعاصي والكبائر، ورأيت من يصاحبه ويلازمه فاعتبره بذاك، واخشَ عليه أن يكون مثل صاحبه، لأنه إما أنه لم يعمل بفعل صاحبه وإما أنه علم فرضي، ومن علم بالمعصية فرضيها كان شريكا لصاحبها في الإثم.

في **الألسنة**: إذا وجدت إن فلانا سبابا شتاما، كثير الغيبة، كثير الوقيعة، وتجد أن فلانا كثير الصحبة له، لا يخالفه ولا ينهاه ولا يفارقه، فاعلم أنه شبيه به، رضي صنيعه.

في **العقول**: الناس يتقاربون في العقول وفي التفكيرات، فإذا وجدت في عقل أحدهم محبة للعلم، ووجدت من يصاحبه، فتعلم أن من يصاحبه محبٌّ للعلم وإن لم يكن من أهل العلم، إذا وجدت من يصاحب صاحب السنة فتعلم أنه صاحب سنة؛ لأنه كما قال ابن مسعود: اعتبروا الناس بأخدانهم. وإذا

وجدت من يصاحب أهل الأثر فهو محبٌّ للأثر ولأهله، وإذا وجدت من يصاحب أهل الرأي ويلزمهم فتعلم أنه محب لهم وأن له حكمهم، من أحب السنة صحب أهلها، ومن أحب المحدثات صحب أهلها، «**والمرء علىٰ دين خليله**» كما قال عليه الصلاة والسلام.

فهذه وصية وما وراء هٰذه الوصية بعد الاعتبار أن تعتبر نفسك، ليس المقصود أن تحكم علىٰ الناس؛ ولكن هذه عبارة لطيفة من ابن مسعود حيث قال: اعتبروا الناس بأخدانهم. لكن إذا أردت أن تعتبر الناس فلا بد أن تعتبر نفسك قبل أن تعتبر الناس؛ ولكن من الناس من لا يحب أن يواجَه بالنصيحة والوصية؛ ولكن جعله ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، جعل هذا الموصَىٰ حَكَمًا علىٰ غيره وإذا تأملت وجد أن في العبارة أن يحكم علىٰ نفسه.

فاعتبر نفسك بأخدانك؛ فإن المرء لا يخادن إلا من يعجبه.

إذا كان كذلك فتأمل نفسك ومن تصاحب؟ هل تصاحب أهل الطاعة أم أهل المعصية؟

إذا وجدت من يأنس لأهل العصيان، ولو كان ظاهره الطاعة، ففي الغالب أن نفسه من داخلها تنازعه إلىٰ العصيان، ولو من طرْفٍ خفي.

وإذا وجدت من يصاحب أهل العلم، وجدت أن نفسه تنازعه إلىٰ العلم، ولو لم يكن من طلبته.

وإذا وجدت نفسك تصاحب أهل السنة، فمعنىٰ ذلك أنّ قلبك محب لها.

وإذا وجدت نفسك تصاحب أهل المحدثات وأهل الغيبة وأهل النميمة وأهل الوقيعة فتعلم أن المرء علىٰ دين خليله.

فإذن تبدأ مع نفسك بالإصلاح.

كلمة ابن مسعود هذه لنفسك ولغيرك، وهذه وصية تربوية جامعة دعوية، وكل حسيب نفسه، والله جل وعلا يقول مخبرًا عن قول بعضهم يوم القيامة ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩﴾[الفرقان]، اتهم الرأي وعليك بالسلامة، اطلب السلامة، لا تأخذ نفسك بالأمانيّ، بل كن علىٰ حذر، وكن طالبا للسلامة، لا طالبا للهو واللعب، فإن الحياة ليست مدتها كافية للهو واللعب، وإن غشىٰ اللهو واللعب الأكثرون، وإنما هي لمن عقل ميدان فقط لطاعة الله جل وعلا، ولا تنسَ نصيبك من الدنيا.

[الوصية الرابعة]

من كلمات ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التي أوصىٰ بها الناس، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**تمسكوا بعهد ابن أم عبد**»، وقال: «**رضيت لأمتي ما رضي لها ابن آدم عبد**» قال ابن أم عبد –عبد الله بن مسعود– لأصحابه:

إنكم في زمان: كثيرٌ علماؤه قليل خطباؤه، وسيأتي بعدكم زمان: قليل علماؤه كثير خطباؤه.

في زمن الصحابة –عبد الله بن مسعود توفي سنة اثنين وثلاثين للهجرة–، قال لأصحابه ينبه ويربي: إنكم في زمان كثير علماؤه –لأن الصحابة متوافرون– قليل خطباؤه –في كل بلد فيه مسجد واحد يخطب

فيه العالم في البلد- قال: **سيأتي بعدكم زمان قليل علماؤه** -العلماء قليل تبحث عنهم وهم قليل، ولكن من الكثير؟- قال: **كثير خطباؤه**. الخطباء هم الذين يخطبون الناس، ويتكلمون فيهم، فيدخل فيه خطيب الجمعة، يدخل فيه المحاضر، يدخل فيه المدرسون، كل من يخطب؛ يعني يُلقي كلاما علنيا علىٰ مجموعة من الناس، هؤلاء الخطباء.

وفي هذا الزمن الخطباء علىٰ هذا المعنىٰ كثير، ولكن العلماء -كما قال ابن مسعود-: قليل. هل يقصد ابن مسعود بهذا الكلام أن يُثقف أصحابه ثقافة مجردة عن العمل؛ يعني الآن أنتم في زمن العلماء كثير والخطباء قليل، وسيأتي زمن الخطباء كثير والعلماء قليل. هكذا معلومة ليس وراءها عهد، ولا وراءها علم، ولا وراءها وصية، حاشا وكلا.

فابن مسعود هو العالم الداعي المربي، قال هذه الكلمة ليحذِّر الناس عن الابتعاد عن طريق أهل العلم وإتيان طريق الخطباء؛ لأن في زمنه العلماء كثير ولكن الخطباء قليل، وأما في الزمن الذي يكون بعد زمنه (سيأتيكم زمان قليل علماؤه كثير خطباؤه)، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**خيركم قريني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**» فذكر ثلاثة قرون، وقال: «**لا يأتيكم زمان إلا والذي بعده شر منه حتىٰ تلقوا ربكم**»، وثبت عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ليلة عُرج به إلىٰ السماء رأىٰ أقواما من أمته تُقرض شفاههم ويعذَّبون، ففزع عليه الصلاة والسلام وقال لجبريل: «**يا جبريل من هؤلاء؟**» قال: «**هؤلاء خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون**».

ولهذا تجد أن أثر الكلام اليوم، أثر الكلام في النفوس لم؟ لأنه كما قيل إذا صدر الكلام من موفق مخلص دخل القلوب بإذن الله، وأما إذا صار رياء وسمعه فإنّه للذة لا يجاوز الآذان، يستلذ كلام طيب وجميل ما شاء الله، وعجيب، ولكن هل أثَّر في حياة الناس؟ هل أثَّر؟ دخل في القلوب؟ ما دخل ولا أثر.

كثير اليوم نحضر في خطب الجمعة، ويأتي أمر ونهي وتذكير عظيم؛ لكن هل فزِع الناس من هذا التذكير؟ هل قبلوا؟ القليل من يقبل، والأكثرون لا يقبلون.

ومن أسباب ذلك أشياء راجعة إلىٰ الخطيب، ومنها أسباب راجعة إلىٰ المستمع. فما المخرج؟

وصية ابن مسعود وعهده أن تهتم بالعلماء، وأن تذر الخطباء؛ يعني أن التوجيه والعهد والوصية والعلم تأخذها من أهل العلم؛ لكن الخطباء هؤلاء كثير ولكنهم غير العلماء، العالم موصوف بالعلم والخطيب موصوف بالخطابة، ولما غاير بين الخطباء والعلماء دلّنا علىٰ أنه يريد العلماء غير الخطباء.

وإذا نظرنا إلىٰ هذا الكلام، وتأملنا إلىٰ الواقع اليوم وجدنا أن سماع الناس لكلام الخطباء أكثر من سماعهم لكلام العلماء ولهذا قد يغفل الناس عن السنة من جرّاء ذلك، فإن اهتمام العالم في البيان غير اهتمام الخطيب، وأثر العالم في النفس غير أثر الخطيب؛ لأن هذا وريث النبي ﷺ -أعني العالم- وأما الخطيب فهو وريث الخطباء.

إذن كلمة ابن مسعود هذه توجيه إلىٰ أن يكون اهتمام العبد الذي يطلب نجاته بأهل العلم لا بالخطباء الذين يحاضرون ويلقون أو يعلمون أو يخطبون الجمع أو إلىٰ آخره فإن هؤلاء إن كانوا علماء فعليك

بهم وإن كانوا ليسوا بعلماء فاحذر واعرض كلامهم علىٰ أهل العلم، فما كان من حق فيه فيُقبل وما كان من باطل فيه فيُرد؛ لأن الذين ورثوا النبوة إنما هم العلماء ليسوا الخطباء.[1]

[الوصية الخامسة]

كلمة أخرىٰ لابن مسعود رضي الله عنه ، قال رضي الله عنه لأصحابه محذرا وموصيا وعاهدا إليهم، بل وإلىٰ أمة محمد ﷺ قال:

إنها ستكون أمور مشتبِهات فعليكم بالتؤدة، فإن الرجل يكون تابعا في الخير، خير من أن يكون رأسا في الضلالة.

(**إنها ستكون أمور مشتبهات**)، ابن مسعود وتوفي سنة اثنتين وثلاثين، قبل فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه وقبل أن تبدأ الخلافات بعد مقتله، وما حصل لعلي رضي الله عنه وما بينه وبين معاوية رضي الله عنهما إلىٰ آخر ما حدث، وبداية الفُرقة في الأمّة، وبداية الأقوال، وبداية الأخذ والرد، وتنوع الأفكار والأفهام.

قال لأصحابه وللأمة من بعدهم قال: **إنها ستكون أمور مشتبهات، فعليكم بالتؤدة؛ فإن الرجل يكون تابعا في الخير خير من أن يكون رأسا في الضلالة.**

ستكون أمور متشبهات، ما معنىٰ المشتبهات؟ العلم نوعان:

- محكم.
- ومتشابه أو مشتبه.

المحكم: ما تعلمه حقا بدليله، أو تعلمه حقا من كلام أهل العلم الراسخين المؤتمنين علىٰ كلام الله جل وعلا وعلىٰ كلام رسول الله ﷺ، هذا نوع من العلم، المحكم، وهو الذي الله جل وعلا فيه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[آل عمران:٧]، هذه المحكمات الواضحة البينة التي علمتها، وعلمت ما فيها من المعنىٰ، وأخذتها.

لكن هناك أمور مشتبهات تحدُث في الناس، ولا يجوز لك أن تنساق في المشتبهات والمتشابهات وفق رأيك وهواك؛ بل لابد أن ترد المشتبهات إلىٰ الشرع وإلىٰ الدين ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨]، لا خير إلا دلنا عليه رسول الله ﷺ، ولا شر إلا حذرنا منه.

فماذا تفعل إذا أقبلت المتشبهات؟ قال رضي الله عنه مبينا كيف تكون عند ورود المتشابهات، قال: **إنها ستكون أمور مشتبهات فعليكم بالتؤدة**. هذه الوصية، (عليكم بالتؤدة) عليكم بالتؤدة يعني الزموا التؤدة، الزموا الرفق، التؤدة الأناة، والنبي ﷺ أثنىٰ علىٰ أشج عبد القيس فقال: «**إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله، الرفق والأناة**»، أو قال: «**الحلم والأناة**»، يحبهما الله ورسوله: التؤدة والأناة والرفق، محبوبة لله جل وعلا ولرسوله ﷺ.

---

[1] انتهىٰ الوجه الأول.

ولهذا ثبت في الصحيح أنّ النبي ﷺ قال: «**إن الله يحب الرفق في الأمر كله، ويعطي عليه ما لا يعطي علىٰ العنف**».

وقد دخل رجل يهودي إلىٰ بيت النبي ﷺ، فقال للنبي عليه الصلاة والسلام: السام عليك. السام يعني الموت، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**وعليك**»، سمعت عائشة رضي الله عنها هذا الكلام فغضبت لرسول الله ﷺ فقالت لليهودي: وعليك السام واللعنة. فقال لها عليه الصلاة والسلام: «**مهلا يا عائشة**»، فقالت: يا رسول الله ألم تسمع إلىٰ ما قال؟، قال: «**ألم تسمعي، أني قلت وعليكم -أو وعليك-، يا عائشة: إن الله يحب الرفق في الأمر كله**».

وقد ثبت أيضا في «صحيح مسلم» وغيره أن النبي ﷺ قال: «**إن الله الرفق ويعطي عليه**»، قال: «**إن الرفق ما كان في شيء إلا في شيء إلا زانه ولا نزع من شيء إلا شانه**».

وثبت عنه أيضا عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**إن الله يحب الرفق في الأمر كله ويعطي عليه مالا يعطي علىٰ العنف**».

هذه وصية ابن مسعود رضي الله عنه ، قال: إنها ستكون أمور مشتبهات فعليكم بالتؤدة.

أمور مشتبهات في الأقوال، أمور مشتبهات في الواقع، في أحوال الناس، فماذا ينبغي؟ ما الوصية؟ الرفق يحبه الله ورسوله، وهذه وصية ابن مسعود الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام: «**تمسكوا بعهد ابن أم عبد**»، قال: فعليكم بالتؤدة. إذا ابتدأت المتشابهات التي لا تدري كيف تُرجعها، لا تدري هل تفعل فيها كذا أو تفعل فيها كذا، لا تدري ماذا تقول فيها، فماذا تعمل؟ عليك بالتؤدة؛ لأنه لا يجوز لك أن تتصرف تصرفا إلا عن علم، إذا تصرفت عن جهل فأنت حسيب نفسك وتصرفك عليك؛ لكن لا يجوز أن تتصرف إلا بعلم لأن العلم به النجاة والجهل أودىٰ الناس بالهلاك.

فعليك بالتؤدة يعني تتأنىٰ، فلا تتكلم إلا بكلام تعلم حسنه في الشرع وإصابته في الشرع.

فإن كنت عاميا أو طالب علم فتسأل أهل العلم الراسخين فيه يبصرونك فيما ترىٰ، فإذا ساقوا الأدلة علىٰ قولهم: فإنك تعتقد الحق بدليله.

إذا أتت الأمور في الأقوال، أتىٰ من يقول لك: فكرة غريبة، في مجلس أتىٰ من يقول كلاما جديدا علىٰ سمعك؛ لم تسمعه من قبل، فماذا تتصرف؟ هل تقبله هكذا أو تتئد وتترفق حتىٰ تسأل أهل العلم حتىٰ تكون فيما تقبل وما لا تقبل سائرا علىٰ وفق العلم.

وصية ابن مسعود فعليكم بالتؤدة، فإن قيل لك كلام غريب تتئد وتتأنىٰ وتترفق، فلا تُقْدم علىٰ شيء من تصديق قول أو من تكذيبه، أو من اعتقاد أو نفي اعتقاده، أو من عمل ومسارعة في شيء أو بُعد عنه، إلا بعد الترفق والتأني والتأمل.

والفتن إذا أقبلت تشابهت، وإذا أدبرت عرفها كل أحد، كما قال السلف، إذا أقبلت تشابهت، ما أدري هذه تشبه هذه وتشبه هذه، وتشبه المشروع وهذه لا تشبه، تشتبه علىٰ الناس لأنها مُقبلة، ولكن إذا أدبرت وانتهت عرفها كل أحد.

ولكن من يعرفها حين تقع؟ إنما يعرفها أهل العلم الراسخين الذين هم ليسوا بأهل الزيغ، قال الله جل وعلا في كتابه: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾[آل عمران:٧]، (يَتَّبِعُونَ) الذي في قلبه زيغ يتبع المتشابه، وأما الراسخ في العلم هو الذي يعلم تأويله، قال: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾[آل عمران:٧]، علىٰ أحد الوجهين في الوقف أنّ الراسخين في العلم يعلمون تأويل ما اشتبه علىٰ أكثر الناس؛ لأنهم راسخون في العلم.

فإذا أتت الأمور المشتبهات فوصية ابن مسعود رضي الله عنه إن يكون المرء متئدا مترفقا، قال معللا لماذا؟ قال: فإن الرجل يكون تابعا في الخير خير من أن يكون رأسا في الضلالة.

إذا أقبلت الأمور المتشابهة:

إما أحوال في المجتمع.

وإما في بيت.

وإما في مجلس أو في عمل.

يأتي من الناس من يغلي قلبه يريد أن يكون رأسا فيها ومتقدما فيها وآخر يتأنىٰ، أيهما يحكم لفعله بالحُسن؟ قال ابن مسعود: فإنّ الرجل يكون تابعا في الخير. تكون تابعا ليس المقصود أن تكون متبوعا، أن تكون رئيسا، أن تكون رأسا، لا، المقصود أن تكون محصلا للخير، فإن الرجل يكون تابعا في الخير خير من أن يكون رأسا في الضلالة؛ لأن الأمور المتشابهة إذا أقبلت فإنك إذا أتيتها ربما كانت عاقبتها إلىٰ ضلالة؛ لأنك دخلت فيها دون معرفة شرعية صحيحة، والعلة أن تكون تابعا في الخير خير من أن تكون رأسا في الضلالة؛ لأن المحاسبة يوم القيامة علىٰ ما عملت، لا علىٰ هل كنت رأسا أم كنت تابعا، ومن عباد الله من يحتقر فلا يشفع ولا يؤبه له ولكن من لو أقسم علىٰ الله لأبره -نسأل الله الكريم من فضله-.

فيه بقية وصايا لكن نكتفي بهذا القدر ساعة من الزمان.

ووصيتي لنفسي -ولست بخيركم- ولكم جميعا أن نستمسك بعهد ابن أم عبد؛ لأن النبي ﷺ هو الذي أوصانا بذلك.

ثم الوصية الأخرىٰ أن تتدبر كلمات السلف، أقبل علىٰ كلمات السلف، وتأمل هذه الكلمات، لا تمر عليها مر عجل؛ لكن قف عندها وتأمل ماذا يدل عليه الكلام، تدبر والتدبر فيه الخير، وأما العجلة فيحرم معها المرء كثيرا.

أسأل الله جل وعلا أن يفقهني وإياكم في دينه، وأن يغفر لنا ذنوبنا وما أعظمها، وأن يعفو عنا زلاتنا، وأن يختم لنا برضاه، وأن يجعلنا من الذين إذا سمعوا عملوا، وإذا عملوا أخلصوا، هٰذا ورضي الله عن صحابة نبيه ﷺ رفع الله لهم المقام في الآخرة كما رفع لهم المقام في الدنيا، وغفر لنا وجعلنا معهم في الآخرة، وحشرنا تحت لواء محمد ﷺ.

وأسأله أن يأتيكم علىٰ حسن الاستماع، وأن يجزل لكم المثوبة، وأن يتقبل منكم الصيام والقيام، وأن

يزيد كم من الخير، وأن لا يكلكم في أنفسكم طرفة عين ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

[الأسئلة]:

سؤال (١): ما هو الصواب فيما لو سئل الواحد منا عن بعض أهل البدع، أو سئل عن كتبهم، هل يشنع عليه ما عنده ويذكر ما عنده من الأخطاء، أو يذكر محاسنه ومساوئه؟ رفع الله درجتكم.

الجواب: أهل البدع هم الذين يعملون بالبدع أو يدعون إليها.

والبدعة: هي المحدثات في الدين قد تكون من جهة الاعتقاد وقد تكون من جهة العمل.

والمبتدعة حذّر منها النبي ﷺ في أحاديث كثيرة؛ فقال عليه الصلاة والسلام: «**وإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار**»، قال عليه الصلاة والسلام: «**إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّىٰ الله فاحذروهم**»، وفي آية الأنعام قال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ﴾[الأنعام:١٥٩]، قال أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم: ﴿ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ ﴾ هم أهل البدع.

فالذين أحدثوا المحدثات في الاعتقادات أو في الأعمال ولازموها يُطلق عليهم أصحاب البدع، والواحد منهم مبتدع.

وهؤلاء هدْيُ السلف فيهم أن لا يجالسوا، وأن يُحذَّر منهم ومن مقالاتهم ومن أعمالهم، وأن لا يثني عليهم إذا كان المقام مقام ردٍّ عليهم، أو إذا كان المقام بين العامَّة؛ لأن الثناء علىٰ المبتدع بين العامة إغراء باتباعه، وهو صاحب بدعة فإذا أثنيت عليه دللت الناس علىٰ بدعته.

والمبتدعة في الجملة الحال معهم -من جهة ما يكثر الخلط فيهم في هٰذا الزمن- من الثناء عليهم أو من ذكر المحاسن والمساوئ ونحو ذلك، مقام أهل العلم مع أهل البدع علىٰ حالتين:

الحالة الأولىٰ: أن يكون مقام رد عليهم ومقام تحذير منهم، فهٰذا لا يناسب الثناء عليهم، والمبتدع لا يستحق الثناء أصلا، فإذا كان المقام مقام ردود ومقام تحذير فلا يجوز الثناء علىٰ مبتدع ولا علىٰ من سلك سبيلهم.

أما إذا كان المقام مقام تقييم له ليس ردًّا عليه، فإن أهل العلم يذكرون ماله من الخير وما عليه من الشر، بإجمال دون تفصيل، مثل ما ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ بعض محاسن المعتزلة حيث ردوا علىٰ اليهود والنصارىٰ وعلىٰ طائفة الدُّهرية وعلىٰ كثير من طوائف الضلال من غير هذه الأمة، وأثنىٰ علىٰ الأشاعرة مرة بردهم علىٰ المعتزلة؛ لكن إذا رد علىٰ المعتزلة سامهم ما يستحقون ولم يُثنِ عليهم البتة.

فتجد أنه في هٰذا الوقت خلط كثير من الناس بين المقامين مقام الرد والتحذير ومقام الموازنة.

مقام التقييم هٰذا يكون علىٰ وجه الإجمال وأيضا علىٰ قلة.

ومقام الرد هو الذي ينفع العامة فهذا هو الذي لا يجوز أن يُثنىٰ علىٰ مبتدع، فقد قال رافع بن أشرس فيما رواه ابن أبي الدنيا والخطيب في «الكفاية» وغيرهما قالا: من عقوبة المبتدع أن لا تذكر محاسنه.

يعني لأجل أن لا يقتدي الناس به.

إذا تقرر هذا فتبقىٰ قاعدة المسألة: وهي أنه لا يحكم علىٰ معيَّن بالبدعة إلا أهل العلم الراسخون، ليس الحكم بالبدع لعامة الناس، أو لعامة طلبة العلم، إنما هو لأهل العلم الراسخين، فإذا أثبت أهل العلم الراسخون أن فلانا مبتدع فإنه ينطبق عليه أحكام المبتدعة الذين ذكرنا.

والكلام المجمل ربما ساغ يعني في غير المعين، الكلام علىٰ الطوائف والفئات بغير تعيين، أما إذا أتىٰ الكلام بالتعيين صار المقام أصعب؛ لأن في ذلك حكما والأحكام مرجعها العلماء، والناس في هذه المسألة بين طرفين، وطريقة أهل العلم وسط فيما بين الطرفين. والله أعلم.

سؤال (٢): فضيلة الشيخ: ما العمل في أمر اختلف فيه الناس بين مصحح ومخطئ، وقد اشتبه علي الأمر، والمشكل أنه ليس أمر يمكن تحديده، فهو يتعلق بمنهج دعوي وأمر ونهي، وطلبة العلم الكبار اختلفوا فيه اختلافا شديدا، والعلماء لم يصرحوا فيه بشيء يشفي الغليل؛ بل إنهم يقولون بكلام يحتمل التأويل فأرشدونا رفع الله درجتكم.

الجواب: لم يظهر لي مراد السائل بيقين بالحال التي يريدها، ولكن العلماء ورثة الأنبياء، فإذا أجملوا فإن الإجمال مقصود وليس هروبًا، وإذا فصَّلوا فإن التفصيل مقصود.

فقد أثني عمر بن عبد العزيز علىٰ صحابة رسول الله ﷺ بقوله: إنهم علىٰ علم وقفوا، وببصر نافذ كفُّوا. والراسخون في العلم هم ورثة الأنبياء فقد أخذوا بهذه الخصلة العظيمة، فإذا تكلّموا تكلموا بعلم، وإذا وَقفوا وقفوا بعلم، وقد يكون الإجمال في بعض الحالات من الحكمة ويكون مقصودا ويكون أفضل من التفصيل، وإن كان في الأحكام الشرعية علىٰ وجه العموم التفصيل هو المتعين إلا لحكمة، كما قال ابن القيم في النونية:

عليك بالتفصيل والتبيين فَالْـ ... إطلاقُ والإجمالُ دون بيانِ

قد أفسدا هذا الوجود..... .....[1]

ولكن نجد أن من النصوص الشرعية ما هو مجمل فيبقىٰ علىٰ إجماله.

والمجمل معناه: ما لم يتبيّن معناه.

لهذا نقول للسائل ولغيره: أهل العلم في واقعة أو في مسألة أو في تقييم لحال أو غير ذلك إذا أجملوا فكن مجملا مثلهم، وإذا فصلوا ففصل مثل تفصيلهم؛ لأنك تكون تابعًا غير محكِّم لرأيك ولهواك، وهذه لاشك الناس فيها طبقات ودرجات ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾[آل

---

(١) وتمام البيت:

قد أفسدا هذا الوجود وخبَّطا الـ ... أذهانَ والآراءَ كلَّ زمانِ

عمران].

سؤال (٣): وهذا يقول: فضيلة الشيخ قد يُفهم من كلامك حفظك الله تعالىٰ أنك تزهّد في الوعظ والتذكير في المساجد والمدارس، أرجو توضيح الأمر وجزاكم الله خيرا.

الجواب:

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم

الكلام كان تحذيرا من اتّباع الوعاظ في المسائل التي فيها عمل، الذين يُتَّبَعُون هم العلماء، وأما الواعظ فيعظك ويحرك قلبك، يدلك علىٰ خير وينهاك علىٰ شر، إذا كان ما دل عليه ونهىٰ عنه واضحا لك بما تعلمه من ما أوضحه أهل العلم وما تعلمه بما جاءت به النصوص فإن اتباعك لذلك وقَبول كلام الواعظ واضح الصَّواب.

ولكن إذا أتىٰ الواعظ بأشياء أو الخطيب بأشياء استغربتها واستنكرتها فهل المرجع الخطباء أو المرجع أهل العلم؟ المرجع أهل العلم.

وليس في ذلك غضاضة علىٰ الخطباء وعلىٰ المحاضرين وعلىٰ المعلمين، فالناس كلٌّ يؤدي دوره، والواعظ يؤدي دوره، المحاضر يؤدي دوره؛ فينبه وينفع الله جل وعلا بهم نفعًا عظيمًا؛ لكن هل يتبع الناس هؤلاء؟

مثلا من الوعاظ من هو ليس بمعدود في العلماء الذين يؤخذ بقولهم في الإفتاء، ومع ذلك إذا زرته لا يسكت الهاتف من المستفتيين والمستفتيات، نصب نفسه وقَبِل، وكثير من الأجوبة لا توافق العلم الصحيح.

هذا النوع من الأشياء التي ظهرت من قديم؛ لكن لا يجوز أن تستساغ وأن تُقبل، الواعظ له مهمة، المحاضر له مهمة، يقبل فيما جاء به من العلم الصحيح؛ لكن أن يتخذ عالما، يسأل عن كل شيء ويتتبع في كل شيء؟ هذا تداخل في أداء الواجبات، العلماء عليهم واجب، والوعاظ والخطباء عليهم واجب، فكل أحد يؤدىٰ واجبه، ولا يدخل في واجب الآخر وفي مهمة الآخر.

وإذا وزنَّا الأمور بموازينها كنّا علىٰ خير وعلىٰ مسير فيه أداء للشرع كما ينبغي، وفيه ما يوجبه أو يقضيه العقل الصحيح بما يُصلح الدين والدنيا.

سؤال (٤): وهذا يقول ما حكم الدعاء لولي الأمر علىٰ المنبر، سواء كان في خطبة الجمعة أو غير ذلك، وما رأيك في عدم تجويز الشاطبي لذلك في كتابه «الاعتصام»؟

الجواب: الدعاء لولاة الأمور لم يكن في عهد الخلفاء الراشدين، وظهر في آخر عهد الصحابة وفي عهد التابعين، واستمر سنة إلىٰ يومنا هذا.

وسبب ذلك أنه لما ظهرت الخوارج، وكان الخوارج يرون التدين ببُغض ولاة أمور المسلمين وكراهتهم الخروج عليهم، خالفهم أهل السنة بالدعاء ظاهرا علىٰ المنابر في العلن لولاة الأمور، كما خالف أهل السنة خالفوا الرافضة بالترضي عن زوجات النبي ﷺ وعن آله علىٰ المنبر.

فلما ظهر الابتداع صارت مخالفة المبتدعة سنة ماضية، ولهذا يذكر العلماء أن من سنن خطبة الجمعة إن يدعىٰ فيها لولي الأمر، والدعاء لولي الأمر سنة ماضية، ومن علامات أهل السنة الدعاء لولاة الأمور، ومن علامات أهل البدع الدعاء علىٰ ولاة الأمور كما صرح بذلك البربهاري وغيره في «كتاب السنة».

لكن الدعاء شيء والمدح شيء آخر.

المدح لا يجوز؛ لأنه يراد به الدنيا.

وأما الدعاء فيراد به صلاح الدين والدنيا والآخرة، فالدعاء مبعثه أمر شرعي لله.

وأما المدح فلأهله مقاصد مختلفة، ولهذا العلماء يدعون ولا يمدحون مدحا مطلقا، قد يُثني بعضهم بثناء خاص مقيد لظهور فائدة عمل عمله ولي الأمر؛ لكن هٰذا علىٰ الاستثناء ليس قاعدة مطَّردة يثني لتشجيعه علىٰ الخير وترغيبه فيه وحثه عليه.

أما المدح فإنه ليس من صنيع السلف الصالح، وإنما من صنيعهم الدعاء؛ لأن الدعاء مما يرجىٰ به صلاح دينه، وإذا صلح دين ولي الأمر صلح به شيء كثير.

نكتفي بهذا القدر، وأسال الله جل وعلا لي ولكم البصيرة والختام والحسن.

وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد.[1]

[1] انتهىٰ الشريط الأول.

بسم الله الرَّحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي بعث محمدا بالهدىٰ ودين الحق، ليظهره علىٰ الدين كله وكفىٰ بالله شهيدا.

الحمد لله الذي له أنواع المحامد وهو المستحق لأنواع الثناء سبحانه من إله عظيم، ذلّ له أولياؤه وتكبر عنه الأشقياء، سبحانه ننزهه عن جميع ما لا يليق بجلاله وعظمته، عن اتخاذ الصاحبة والولد والشريك في الربوبية والألوهية، والشريك علىٰ الكمال في الأسماء والصفات، والشريك في الأفعال التي تكون موافقة للحكمة في كل شيء، وفي الشرع والقدر، وفي الأمر والنهي، وفي كلامه، سبحانه وتعالىٰ عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كلمة حق قامت عليها الأرض والسَّمٰوات، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله أرسله الله بالهدىٰ ودين الحق، فترك هٰذه الأمة علىٰ البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده ﷺ إلا هالك.

اللّٰهمَّ صل وسلم وبارك علىٰ عبدك ورسولك محمد وعلىٰ آل نبينا محمد وعلىٰ صحبه وعلىٰ زوجاته وعلىٰ من اتبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.

أما بعد..

فأسأل الله لي ولكم الهدىٰ والسداد والتوفيق والرشاد، وأن يجعلنا من الموفَّقين، وأن يباعد بيننا وبين سبيل المخذولين.

هذا الدرس في موضوعه تتمة لدرس سابق في هذا المسجد في إحدىٰ ليالي رمضان الماضي، وكان بعنوان:

وقفات مع كلمات لابن مسعود

أو سمه إن شئت:

عهد ابن أم عبد

وقد ذكرنا أن النبي ﷺ أوصىٰ باتباع عهد ابن عبد وقال عليه الصلاة والسلام «**تمسكوا بعهد ابن أم عبد**» في أحاديث ذكرناها فيما مضىٰ.

فهذه الكلمات التي نسوقها لأحد صحابة رسول الله ﷺ المهاجرين إنما هي للتفقه، وإنما هي للعلم والتربية والنظر في ذلك؛ لأن أكمل المربين تربية من هٰذه الأمة هم صحابة رسول الله ﷺ ، فهم الذين درسوا وعلموا ودعوا التابعين، وكانت نتائج تربيتهم ودعوتهم فائقة رائقة، أخرج الله جل وعلا بهم الجم الغفير من الظلمات إلىٰ النور.

[الوصية السادسة]

من كلمات ابن مسعود رضي الله عنه التي نقف معها أنه قال:

إنما هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره.

(إنما هذه القلوب أوعية) وهٰذا حصر، وهذا الحصر صحيح؛ لأن القلوب كالوعاء ما جعلته فيه اندفق عنه، والألسنة مغارف للقلوب لا يظهر علىٰ لسان أحد كلام إلا وقد غرفه من قلبه، فبقدر ما يكون في القلب من العلم أو من غيره يكون مغروفا باللسان، ويكون مسيطرا علىٰ الفكر ويكون مسيطرا علىٰ الفهم والتصرفات.

ولا شك أن الله جل وعلا أنزل هٰذا القرآن ليهدي به الناس، وهو كتاب منيع يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، وهذا القرآن يهدي للتي هي أقوم كما قال جل وعلا: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء:٩]، وقوله جل وعلا ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ يعني أكمل السبل وأقوم السبل وأقوم الطرائق في جميع ما يحتاجه العباد، فيما يصلح قلوبهم، وما يصلح جوارحهم وألسنتهم وفي تصرفاهم في الحياة وفي عباداتهم وفي تنظيماتهم وفي أمورهم المالية وفي أمورهم الاجتماعية، فالقرآن يهدي للتي هي أقوم.

ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أوصىٰ فقال: إنما هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن. إن الوعاء لابد أن يمتلئ، والناس في هذه الحياة الدنيا إذا امتلَؤوا من شيء فلأنهم سمعوه أو قرؤوه أو نظروا فيه، فالنظرة مؤثرة في القلب، والسماع مؤثر في القلب، والقراءة مؤثرة في القلب، وأنواع الرؤية مؤثرة في القلب، ولهذا إذا امتلأ القلب من القرآن فإنه:

إن جاءه حق فإنه يوافق ما في القرآن فيقر في القلب علىٰ الصواب.

وأما إن أتاه ما ليس بحق إن أتاه باطل من جهة الشهوات أو من جهة الشبهات فإن القلب الذي امتلأ بالقرآن فإنه يرد ذلك الباطل وإنما يقبل الحق، وإذا عرض له شيء من الباطل فسرعان ما يحرقه نور القرآن.

لهذا ابن مسعود قال: فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره. لأن القلب إنما هو لما انشغل به.

هٰذه وصية بالقرآن وصية بحفظه وصية بتدبره وصية بتلاوته وصية بتأمله ومدارسته، ولا شك أن الناس إنما يشرفون وتعظم أحوالهم أفرادا وجماعات بمقدار ما استمسكوا بهذا القرآن، وكلما كان استمساكهم بالقرآن أعظم، كلما كانت درجتهم أرفع عند الله جل وعلا؛ لأن القرآن هو حبل الله المتين وهو صراطه المستقيم الذي من أخذ به نجا ومن تخلف عنه هلك.

(اشغلوا القلوب بالقرآن حتىٰ تمتلئ به ولا تشغلوها بغيره) القرآن هو الأنيس، هو المؤنس في الخلوات، هو الذي ينير القلب، هو الذي يكون به العبد يوم القيامة في رفعة من الدرجات، القرآن حفظا وتلاوة له عند من يحبه الدرجة العظيمة التي لو تخلَّف عنها يوم واحد لآنس من قلبه تغيُّرا وآنس من قلبه شيئا من الكبت، لهذا شَغْل النفس بالقرآن وانشغال القلوب بالقرآن هٰذا أمر عظيم تربوي وعظيم في تزكية النفس، ولهذا قال جل وعلا في وصف كتابه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[الإسراء:٩]، وقال: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾[آل عمران:١٠٣]، وحبل الله جميعا القرآن وقال سبحانه فيه: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾[الفاتحة]، والصراط المستقيم هو القرآن وهو السنة وهو الإسلام.

من الناس من يمرّ عليه أحوال وأيام لا يقرأ القرآن فيها، يمر عليه اليوم واليومان، وقد كان الإمام أحمد - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ورحمه ورفع مقامه في الجنة- كان لا يمر عليه يوم إلا وينشر المصحف وينظر فيه، حتىٰ ولو كان المرء حافظا لكتاب الله فإنه يُستحب له أن ينظر في المصحف كل يوم، لا يخالف ذلك، والقلب إذا امتلأ من القرآن حفظا وتدبرا وتأملا كان في ذلك الخير، وإذا لم يكن حافظا فعليه بكثرة التلاوة، فما أحسن قول الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ في أوّل «ألفيته في القراءات» قال:

وَإِنَّ كِتَابَ اللهِ أَوْثَقُ شَافِعٍ ... وَأَغْنَىٰ غَنَاءً وَاهِبًا مُتَفَضِّلاَ
وَخَيْرُ جَلِيسٍ لاَ يُمَلُّ حَدِيثُهُ ... وَتَرْدَادُهُ يَزْدَادُ فِيهِ تَجَمُّلا
وَحَيْثُ الْفَتَىٰ يَرْتَاعُ في ظُلُمَاتِهِ ... مِنَ الْقَبرِ يَلْقَاهُ سَنًا مُتَهَلِّلاً
هُنَالِكَ يَهْنِيهِ مَقِيلاً وَرَوْضَةً ... وَمِنْ أَجْلِهِ فِي ذِرْوَةِ الْعِزِّ يجتُلَىٰ
يُنَاشِدُه في إرْضَائِهِ لحبِيبِهِ ... فَأَكْرِمْ بِهِ سُؤْلاً إِلَيْهِ مُوَصَّلاَ

نعم إن القارئ للقرآن لابد له أن يتدبر.

الهذّ نهىٰ عنه ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقال: **لا تهذوا القرآن هذّ الشعر، ولا تنثروه مثر الدقل، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب**. وهكذا يجب أن يتدبر المرء القرآن، ينظر في الآية ويتأمل ما موقفه هو، ما حياته، ما اتصاله حين يقرأ هذه الآية، ما صلة هذه الآية بحياته، ما صلتها بما يفعل، إذا نظر يأمل في آية فيها أمر نظر في حياته هل طبق أو لم يطبق؟ هل امتثل أو لم يمتثل؟ إذا نظر في نهيه فإنه ينظر في حاله وحال من حوله.

ولهذا ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ قال: إن أنفع ما يكون لقارئ القرآن حين يقرأ القرآن أن يستحضر أنّ الله جل وعلا يتكلم بهذا القرآن، وأن جبريل يسمعه منه فينزل به من الرب الجليل العظيم جلّ جلاله ثم يُلقيه علىٰ النبي عليه الصلاة والسلام، فإذا هو عليه الصلاة والسلام يبلغ الناس به: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إلىٰ آخر ما هنالك.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إذا سمعت في القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فارعها سمعك، فإنها إما خير تؤمر به وإما شر تحذر منه.

إذن فالعناية بالقرآن هي وصية النبي عليه الصلاة والسلام ووصية ابن مسعود.

والناس في القرآن درجات منهم من يقرؤه قراءة أمان كحال أولئك الذين قرؤوه أماني قال الله جل وعلا فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨﴾[البقرة]، يقرؤونه أماني لا يفقهون ما فيه، فالواجب علىٰ الناس أن يتدبروا القرآن وأن يتأملوه؛ لأن الله جل جلاله أمرهم بذلك، فقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾[النساء]، وقال جل وعلا ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦٨﴾[المؤمنون]، وقال جل وعلا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ۝٢٤﴾[محمد]، دلّت هذه الآية آية سورة محمد عليه الصلاة والسلام أنّ من لم يتدبر القرآن فإن علىٰ قلبه قُفْلا.

وهذا صحيح إن من الناس من يقرأ القرآن لكنه لا يستحضر أنه ينبغي له أن يفهم معانيه، فيمر بالآية مرة ومرتين وثلاث وهو لم يشغل قلبه بمعرفة معناها، يسمع الإمام يتلو آيات وتمر علىٰ ذهنه، خاصة في المفصل فيما يقرأ كثيرا، ولا يفهم بعض المعاني ولا يتحر إلىٰ أن يعلم معاني تلك الآيات، لاشك أن هذا قصور وانشغال عن القرآن بغيره.

إذن فالانشغال بالقرآن في وصية ابن مسعود، انشغال بحفظه، انشغال بمدارسته، انشغال بمذاكرته، انشغال بتدبره ومعرفة معانيه، وكلّ ما كان في سبيل القرآن وتفهّمه ودراسته فإنه مأمور به؛ لأن القرآن هو الإسلام؛ ولأن القرآن هو الحجة علىٰ العالمين إلىٰ قيام الساعة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ ورضي عنه: (**ولا تشغلوها بغيره**) غير القرآن كلام الخلق، والقرآن كلام الخالق سبحانه، فهل يتساوىٰ في قلب أحد كلام من خلق السَّمٰوات والأراضين ومن صور الإنسان وصور الكائنات مع كلام المخلوقات؟

لا تشغلوها بغيره، فإذا انشغلت بغيره فإن القلوب ستمتلئ من ذلك الغير، قد يمر عليه يوم ولا يقرأ القرآن وتسأله لم؟ فقال أنا مشغول، بم أنت مشغول وفيم أنت مشغول؟ في أمور الحياة، وفي الحقيقة تجد أنه ربما طالع جريدة ساعة أو ساعتين أو ربما قرأ في مجلة ساعة أو ساعتين ونصيب كتاب الله جل وعلا عن قلبه في يومه وليلته قليل، وهذا لاشك أنه مما لا ينبغي، ومما تركه أولىٰ؛ لأن القرآن حتّم عليه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ **بأن نقرأه وأن لا نترك ختمه فوق أربعين**.

إذن القلوب أوعية فإذا امتلأت بالقرآن امتلأت بأوامره ونواهيه وأفرزت وظهر علىٰ العبد ما يأمر به الله جل وعلا في كتابه، وإن انشغلت بغير القرآن فإنه يظهر عليها في تصرفاتها، في أحوالها، في آرائها، في أفكارها، ما يكون من قبيل الفهم والرأي ولا يكون من قبيل تحكيم القرآن علىٰ النفس وعلىٰ القول والعمل.

هذه وصية، وهي وصية عظيمة جليلة؛ اشغلوا القلوب بالقرآن ولا تشغلوها بغيره، من الحسن؛ بل من المفروض أن تحفظ كل يوم إن لم يتيسر لك حفظ الكثير أن تحفظ بضع آيات، أن تحفظ خمس آيات، ست، سبع كل يوم، فستحصل بعد زمن حفظ كبيرا وتردد ذلك وتتأمله وتتدبره.

[الوصية السابعة]

من وصايا ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن كلماته أنه قال:

إنَّك ما دمت في الصلاة فأنت تقرع باب الملك، ومن يُكثر قرع باب الملك يُفتح له.

(**إنك ما دمت في الصلاة فأنت تقرع باب الملك**) الملك الديّان، ملك الأرض والسَّمٰوات، الذي هو علىٰ كل شيء قدير، وإذا أدمنت القرع وأدمت ذلك فإنه يوشك أن يفتح لك.

هذا الأثر رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في السنن الكبرىٰ وغيرهما.

هذا من ابن مسعود تعظيم لفهم الصلاة، وقد قيل له: إن فلانا يطوّل الصلاة يعني صلاته لنفسه فقال:

إن الصلاة لا تنفع إلا لمن أطالها.

قال جل وعلا ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[العنكبوت:٤٥]، الصلاة التي تقام وأقم الصلاة إن الصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، لاشك أنها تفتح للمرء أبوابا من الخيرات من غشيان المعروف ومن ترك المنكر، وما دمت في الصلاة فأنت تقرع باب الملك الديان.

هذا القول من ابن مسعود فيه تنبيه إلىٰ أن الذي يطيل الصلاة لا يمكنه أن يطيلها إلا إذا كان يعقل ما يقول؛ لأنك ما دمت في الصلاة فأنت تقرع باب الملك، ولاحظ قوله: (**فأنت تقرع باب الملك**) أن فيه تشبيها بمن يقرع الباب ويتكلم، والذي يقرع الباب ويتكلم مركز فيما يقول مستحضر لما يقول؛ لأنه يريد أن يدخل فشغله الشاغل بأن يفتح له وهذه حال المتدبرين لما يقولون.

كثيرين من الناس لا يتدبرون ما يقولون في الصلاة، ومن العجب أن يكون المرء كثير ما يصلي الفرائض والنوافل، وإذا سألته عن معاني ما يقول وما يناجي به الله جل وعلا لم يحسن من ذلك إلا القليل.

إذا سألته عن معاني التسبيح ما درىٰ ما يقول، لم كانت هنا سبحان ربي العظيم، ما معنىٰ التسبيح؟ سمع الله لمن حمده، ما معنىٰ السماع هنا؟ سبحان ربي الأعلىٰ، التحيات لله والصلوات والطيبات ما معنىٰ ذلك؟ كثير من الخلق يعني من المسلمين يقرؤون هٰذا، حفظوه ويتلفظون به دون علم بمعانيه.

وهذا لاشك أنه يفوتهم فيما يقولون الخشوع في الصلاة؛ لأن الخشوع في الصلاة فرع عن التدبر، وقد ثبت في السنن والمسانيد أن النبي ﷺ قال: «**إن الرجل لينصرف من الصلاة وما كُتب له إلا عشرها إلا تسعها إلا ثمنها إلا سبعها إلا سدسها إلا خمسها إلا ربعها إلا ثلثها إلا نصفها**» قال العلماء: سبب ما فات من أجر الصلاة هو ما فات من الخشوع.

الخشوع في الصلاة ليس بواجب هو مستحب، الطمأنينة ركن، والخشوع بمعنىٰ خشوع القلب وخشوع الجوارح مستحب، إلا إذا كانت حركة جوارحه تخرجه عن هيئة الصلاة، فهذا يكون مبطلا لها؛ لكن الخشوع في أصله مستحب، والناس يتفاوتون فيه ما السبيل إلىٰ الخشوع في الصلاة، السبيل إليه أن يكون المرء متدبرا لما يقول، هل يتدبر ما يقول دون أن يعلم؟ لابد إذن من العلم، العلم بما تقول، معاني الفاتحة هذه السورة العظيمة ما معانيها؟ كثير من الناس لا يحسن ذلك، يبتدئ الصلاة ويقول: سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالىٰ جدك ولا إله غيرك. ما معنىٰ ذلك، ما معنىٰ وتعالىٰ جدك، وتبارك اسمك؟ يقول كلاما يردده ولا يحسن ذلك.

ولهذا من الناس؛ بل نقول إن اثنين يقفان في الصلاة وبين هذا وهذا من فقه الصلاة ومن الأجر فيها كما بين المشرق والمغرب. والصلوات درجات.

تأمل ذلك الصحابي الذي قال بعد أن عطس قال: الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه. فلما انصرف عليه الصلاة والسلام من الصلاة قال: «**أيكم قال هذه الكلمة**» فسكت القوم ثم قال: «**إنه لم يقل إلا خيرا**» فقال: يا رسول الله أنا قلتها. فقال: «**لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يرفعها**»، هل هذا

يحصل لكل أحد؟ لا يحصل لكل أحد كلمة عظيمة من قلب وعىٰ ما يقول وعظم بها الرب جل وعلا، فوافق اللسان في ذلك القلب، هٰذا لاشك يحتاج إلىٰ تأمل.

قال صاحب كتاب «الإفصاح في معاني الصحاح»: لقد تأملت وجه كون الملائكة الذي ابتدروها ليرفعوها بضعة وثلاثين ملكا، لِم لَم يكونوا عشرين أو عشرة أو خمسين؟ قال: فلما تأملت وجدت أن عدد حروف تلك الكلمات بضعة وثلاثين حرفا بالمشدد، حتىٰ تأملت وكأني أنظر غلىٰ الملائكة يزدحم الملك مع الملك بالحرف المشدد؛ لأن الحرف المشدد عبارة عن حرفين حرف ساكن ومتحرك، قال: فتأملت فكأني أنظر بالملكين يبتدران الحرف المشدد كلٌّ يريد أن يأخذ نصيبه من ذلك الحرف المشدد.

هذا لاشك أنه من المقامات العظيمة إنما هذا لمن وعىٰ وتدبر القرآن، من وعىٰ وتدبر ما يقول، إذا صليت الصلاة، إذا صليت الآن وقلت: التحيات لله والصلوات والطيبات، ولم تفقه معناها فبادر الليلة، إذا قلت: سبحان ربي العظيم ما تعرف معنىٰ التسبيح، سمع الله لمن حمده، ما تعرف معاني الحمد فبادر واقرأ، فإن هذا من العلم الجزيل، وتحصل الفضيلة التي قالها ابن مسعود رضي الله عنه في هذه الوصية: إنك ما دمت في الصلاة فأنت تقرع باب الملك ومن يكثر قرع باب الملك يفتح له. إذا فُتح لك فأين تدخل، إنك تدخل إلىٰ معية الله جل وعلا لعبده المعية الخاصة، بتوفيق الله وإعانته وتسديده، وهذا كله إنما يكون لمن أدام الصلاة وكان دوامه في الصلاة دوام فقيه فيها.

[الوصية الثامنة]

قال ابن مسعود رضي الله عنه أيضا فيما رواه عنه أبو الأحوص ، قال: قال عبد الله :

إنّ الرجل لا يولد عالما، وإنما العلم بالتعلم.

وهٰذا كأنه مأخوذ من حديث للنبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتوق الشر يوقه**» حديث صحيح.

(إنّ الرجل لا يولد عالما وإنما العلم بالتعلم) لاشك أنّ فضيلة العلم عظيمة؛ لكن هل يحصل هكذا بالولادة، أم لابد من التعلم والمجاهدة؟

من الناس من يروم أن يكون متعلما عالما أو طالب علم هكذا بحديث ليل أو بحديث نهار، وهذا لا يحصل أبدا؛ لأن الأشياء منوطة بالهمة والاجتهاد.

«**إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يعطه ومن يتوق الشر يوقه**» أنت لا تولد عالما وإنما تولد وعندك أدوات في الاستعداد للعلم ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾[النحل:٧٨]، هذه وسائل الإدراك، وسائل تلقي المعلومات؛ السمع والأبصار والأفئدة، الفؤاد تعقل به، والسمع تسمع به، والبصر تبصر به، فهذه وسائل الإدراك، أقام الله جل وعلا عليك الحجة بالسمع والبصر وبالقلب وتتعلم بهذه، وتكون وسائل وتكون طرق لتحصيل المعرفة وتحصيل العلم.

إذن فالعلم يكون بالتعلم.

في هٰذا الزمن من العجيب أن نرىٰ من كثير من الناس الانصراف عن العلم، مع أن العلم في هذا الزمن أسهل من أي زمن مضىٰ، يمكن أن تسمع العلم وأنت في المسجد، يمكن أن تسمع العلم وأنت في السيارة، يمكن أن تسمع العلم وأنت مستلق في فراشك، يمكن أن تسمع العلم وأنت تأكل.

ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ كان إذا دخل الخلاء جعل ولده يقرأ عليه خارج الخلاء خارج البيت يعني خارج الحمام، ما يريد أن يفوت شيئا.

عندك اليوم أنت في كل لحظة يمكن أن تسمع علما، عقول العلماء وعقول المشايخ وألفاظهم سجلت، هي عندك يمكن أن تحملها في أي مكان؛ ولكن يحتاج من العبد يحتاج من الرجل إلىٰ إقبال، يحتاج من المرأة إلىٰ إقبالٍ إلىٰ ذلك، وإنما العلم بالتعلم، العلماء ليسوا طائفة مخصوصين خلقهم الله جل وعلا لذاك ولا يحصل إلا لهم؟ لا؛ لكن من تعلم علِم، بقدر ما كتب الله له من ذلك.

وهناك في قصة ذكرتها عدة مرات، وهو أن أحد رواة الحديث فيما رواه الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» أنّ أحد رواة الحديث طلب العلم علم الحديث والرواية فلم يدرك شيئا أو أدرك شيئا قليلا، ورأىٰ الناس يمرون وقد حصّلوا علما جزيلا فقال: أنا لا أصلح لهذا العلم. فتوجه إلىٰ غيره.

قال فمررت يوما فإذا بماء ينسكب ويتقاطر مِن علىٰ صخرة وتحته حجر وقد أثر فيه حفرة، قال: فوقفت متدبرا متأملا، فقلت: **هذا الماء علىٰ لطافته أثر في هذا الصخر علىٰ كثافته**؛ يعني علىٰ غلظه وعلىٰ قسوته، هذا الماء علىٰ لطافته أثر في هذا الصخر علىٰ كثافته، **فليس قلبي بأقسىٰ من الصخر وليس العلم بأرق وألطف من الماء**. فرجع وطلب الحديث حتىٰ صار من المشهورين ومن علماء الحديث أو من الرواة المعروفين.

لاشك أنه لابد من أخذ العلم شيئا فشيئا كما قال القائل:

اليومَ علمٌ وغدا مثلُه ... من نُخب العلم التي تُلتقط

يُحصِّل المرءُ بها حكمة ... وإنما السيل اجتماع النُّقط

تأمل في كل شيء عبرة، تأمل السيل اجتماع النقط، إذا نظرت إلىٰ وحدة السيل، وحدة المطر واحدة، كيف قطرات تأتي، هل يمكن أن تسيل أودية أو أنهارا، إنما السيل اجتماع النقط، فإذا اجتمع عندك خير واحدة تلوىٰ الأخرىٰ فإنك تحصل مع الزمن خيرا كثيرا من العلم، وإنما العلم بالتعلم.

هنا قضية مهمة وهو أن العلم قد يرومه بعض الناس باستعجال والعلم لا يصلح بالاستعجال، وإنما يطلب علىٰ مر الأيام والليالي، قال ابن شهاب الزهري الإمام المعروف: من رام العلم جملة ذهب عنه جملة، ولكن يطلب العلم علىٰ مر الأيام والليالي.

العلم ليس للصغير دون الكبير، نعم العلم في الصغر كالنقش علىٰ الحجر؛ ولكن الكبير أيضا يحصل العلم، والصغير إذا كبر ولم يواصل العلم فإنه يفوته ويذهب عنه العلم.

لهذا رئي الإمام أحمد ومعه علىٰ كبر سنه ومعه محبرة وأوراق، فقيل له: يا أبا عبد الله وأنت في هذا السن ومعك المحبرة؟! فقال كلمته المشهورة: مع المحبرة إلىٰ المقبرة.

ومن كلماته المشهورة قال: أطلبوا العلم من المهد إلىٰ اللحد. من المهد يعني من أول لحظة هل يمكن ذلك؛ من وأنت في النهد تطلب العلم؟ فهذا من المبالغة في شدة الاستمساك بذلك.

(**إنما العلم بالتعلم**) كما قال عليه الصلاة والسلام وكما ربىٰ ابن مسعود ﵁ بقوله: إن الرجل لا يولد عالما وإنما العلم بالتعلم.

روىٰ هذه الكلمة ابن عبد البر في الجامع في بيان العلم وفضله.

[الوصية التاسعة]

كلمة أخرىٰ لابن مسعود في هذا المعنىٰ قال:

تذاكروا الحديث، فإن ذكر الحديث حياته.

كل مسلم لاشك أنه يرغب في الاستمساك في السنة، والاستمساك بهدي المصطفىٰ ﷺ، فهل ينتظر أن يسمع بين كل حين وحين حديثا واحدا، أم أن نعمر المجالس بتلاوة سنته عليه الصلاة والسلام، قال ابن مسعود لأولئك الذين يكثرون الجلوس أو للأقران: تذاكروا الحديث فإن ذكر الحديث -يعني تذاكره- حياته.

إذن إذا تذاكرت العلم به يحيىٰ، وإذا غفلت عن تذاكره مات العلم، وهذا الذي ينبغي في مجالسنا أن تكون المجالس مجالس علم ومجالس سنة مجالس حديث مجالس خير؛ لأنك إذا تذاكرت العلم ثبت، وإذا سمعت في مجلس واحد بضعة أحاديث وقرّت في ذهنك فإنه يكون من ذلك عندك حصيلة عظيمة وبها حياة القلب، وبها تحصيل العلم والعلم يُحصل شيئا فشيئا.

إذن فهذه وصية لابن مسعود أن العلم لا يكون مع الرجل منذ ولادته الرجل لا يولد عالما؛ ولكن يطلب العلم وإنما العلم بالتعلم ومن يتحر الخير يعطه.

[الوصية العاشرة]

من كلمات ابن مسعود أيضا المتصلة بما سبق في تأصيل العلم، كيف تطلب؟ العلم وعمن تأخذ العلم؟ قال ﵁:

لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم وأمنائهم وعلمائهم، فإذا أخذوا من شرارهم وصغارهم هلكوا.

ما يقصد بقوله (**إذا أخذوا من شرارهم وصغارهم هلكوا**) ما قاله أيضا في رواية أخرىٰ له؛ يعني عنه في هذه الكلمة قال: (**إنكم لن تزالوا بخير ما دام العلم في كباركم، فإذا كان العلم في صغاركم سَفَّهَ الصغيرَ الكبيرُ**) ففهمنا من ذلك أن الصغير الذي لا يقر له الكبير بالعلم فإنه لا يؤخذ عنه العلم، إذا صار العلم في الصغار وفي الشرار وفي غير المأمونين هلك الناس الصغير، يؤخذ عنه العلم إذا شهد له الكبار بالعلم،

وهكذا كان سلفنا الصالح يطلبون العلم، يحدِّثون ويحدَّثون لكن إذا شهد له بذلك.

أقف عند قوله: (فإذا أخذوا من شرارهم) شرار الناس هم غير المأمونين في العلم.

وفي هذا الزمن وجدنا أن العلم صار يتلقاه كثير من الخلق عن طريقٍ ليس هو طريق العلماء، يأخذونه من جريدة، مقال في جريدة يقرؤه فيه دليل أو دليلان، فيه رأي، فيه فكر، فيصبح الناس يتحدون في مجالسهم، فلان قال كذا وكذا وأنت تريد أن تقنعهم بهذا الذي قال ليس بصواب، وهم لا يقتنعون، فهذا الزمن بانتشار الجرائد والمجلات وأنواع من يكتبون فيها من صغار وشرار وأناس لهم أفكار مختلفة، أصبح كثير من الناس يتلقىٰ العلم عن الجرائد، ويتلقىٰ الثقافة حتىٰ الشرعية عن الجرائد والمجلات، فصار العلم يؤخذ كما قال ابن مسعود ﵁ يؤخذ عن الشرار والصغار.

العلم يجب أن يؤخذ عن أهله، عن أهله الذين شُهد لهم بذلك عن الكبراء، عن المأمونين بالعلم.

أما أن تأخذ العلم عمن هب ودب، تقرأ مقال، تقرأ جريدة، تقرأ مجلة وتقتنع بما فيها وتظن أن هذا العلم، ليس كذلك، وإنا ما يذكر هناك يجب أن يعرض العلم علىٰ أهل العلم، فإن أقروا به فموافق للعلم، وإن قالوا: هذا ليس بصحيح صار مخالفا للعلم.

وكم رأينا في تلك الوسائل المقروءة من أشياء تهدم أصل الدين، وتدعو إلىٰ البدع؛ بل إن منهم من كتب في أن اليهود والنصارىٰ إذا ماتوا فإنهم يدخلون الجنة، بعبارات وأدلة وأورد ما أورد في ذلك وهذا قرأه ملايين الناس أو مئات الآلاف من الناس، وقد يكون هناك من اقتنع بذلك، ولاشك أن هذا سبب من أسباب الهلاك بيّنه ابن مسعود ﵁ في قوله: فإذا أخذوا من شرارهم وصغارهم هلكوا.

إذا رأيت من يقع في ذلك فالتربية والتوجيه يقتضي أن تتكلم معه في تلك المسائل بهدوء، هؤلاء يكتبون ليسوا من أهل العلم، تقول: هؤلاء يكتبون من وجهة نظر ربما كانت ضيقة، ما عندهم علم شامل بالكتاب والسنة، هذه الكلمة أخطأ فيها والصواب فيها كذا وكذا وكذا، وشوف من حوله وربما صار من يتتلمذ لتلك الجرائد والمجلات مَن من هو من أقربائك أو من أهل بيتك أو إلىٰ آخره فيكون هناك قناعة بما قاله شرار الناس وصغار الناس.

قد قال ابن مسعود: فإذا كان العلم في شراركم سفه الصغير الكبير.

كذلك من كلمات ابن مسعود هذه نأخذ أنه لا يسوغ للمرء أن يتصدر قبل الأوان، إذا كان صغيرا وآنس من نفسه قدرة علىٰ البحث وتجميع المعلومات والنظر، لا يعني ذلك أن يبتدئ ويبدأ يتحدث وهو بعد صغير لم تنضج قناته في العلم. لا؟ ولكن ينتظر وينتظر حتىٰ يشهد له أهل العلم بذلك ويجيزوه.

كان في الزمن الماضي ما يسمىٰ بالمعيدين، المعيد هذا أحد طلبة العالم يختاره لكي يعيد الدرس علىٰ الطلاب علىٰ من لم يفهم، يذهب للشيخ ثم هذا يقعد ويسمىٰ معيدا -يعني في القرون الماضية-، ويبدأ يعيد ما قاله الشيخ لمن لم يفهم، هذا تأهيل.

فلا يسوغ للمرء أن يتصدر سواء في جلسة صغيرة أو كبيرة أو محاضرة أو درس أو في تعليم علم إلا

وهو ورع فيما يقول خاصة، والتصدر مذموم، ولابد إذا تصدر أن يكون مشهودا له، أجازه أهل العلم وأثنىٰ عليه أهل العلم حتىٰ لا تضطرب الأقوال، ويقتدي الناس بمن يكون خطؤه أكثر من صوابه.

[الوصية الحادية عشر]

من كلمات ابن مسعود ﷺ أيضا أنه أتاه رجل فقال له: يا أبا عبد الرحمن علمني كلمات جوامع نوافع. فقال:

اعبُد الله ولا تشرك به شيئا، وزل مع القرآن حيث زال، ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيدا بغيضا، ومن جاءك بالباطل فاردد عليه وإن كان حبيبا قريبا.

رواه أبو نعيم في كتابه «حلية الأولياء».

أما الجملتان الأوليان فنمر عنهما وهما قوله (اعبد الله ولا تشرك به شيئا وزل مع القرآن حيث زال).

ونقف مع الكلمتين الأخيرتين قال: (**من جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيدا بغيضا، ومن جاءك بالباطل فاردد عليه وإن كان حبيبا قريبا**) هذه قالها ابن مسعود ﷺ من اجتهاده أو من فقهه في النصوص؟ الجواب من فقهه في النصوص:

لأن النبي ﷺ أقر تعليم الشيطان لأبي هريرة قراءة آية الكرسي قبل أن ينام، وهذه مشهورة فقال الشيطان لأبي هريرة: اقرأ آية الكرسي فإنه لن يزال معك من الله حافظ حتىٰ تصبح. واستفدناها من الشيطان.

أيضا رأت اليهود أن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ربما قالوا: ما شاء الله وشاء محمد. فقالوا - اليهود يقولون للمسلمين صحابة رسول الله ﷺ -: إنكم تنددون يعني تشركون، تنددون بالله تجعلون مع الله ندا، تقولون ما شاء الله وشاء محمد. فأمرهم النبي ﷺ أن يقولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد.

وفي حديث آخر أن أحد الصحابة رأىٰ رؤيا أنه مرّ علىٰ قوم من اليهود، فقال: لهم إنكم لأنتم القوم إلا أنكم جعلتم عزيرا ابنا لله جل وعلا. فقال له اليهود: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تنددون تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. قال: فمررت علىٰ نفر من النصارىٰ فقلت لهم مثل ما قلت في تلك: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون عيسىٰ ابن الله. فقالت النصارىٰ له: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تنددون تقولون ما شاء الله وشاء محمد. فأمرهم النبي ﷺ أن يقولوا: ما شاء الله وحده.

شهادة من شيطان، وشهادة من يهود نقد، رد، إنكار من اليهود علىٰ المسلمين، وإنكار من النصارىٰ علىٰ المسلمين وقبلهم النبي عليه الصلاة والسلام وصحابته، وصار شرعًا ودينا وفائدة نعمل بها إلىٰ يومنا هذا.

قال ابن مسعود في ذكره لهذه الأحاديث قال: **من جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيدا بغيضا**. حتىٰ ولو كان كافرا يهوديا نصرانيا شيطانا مبتدعا، إذا جاءك بالحق في نفسه، نقدك بشيء هو فيه محق فاقبل، اليهود نصحوا الصحابة بشيء هم فيه، فقبلوا ذلك وغيروه.

قال إمام هذه الدعوة شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب حين أتىٰ لهذه الأحاديث قال فائدة عظيمة[1] لو رحل رجل من أجلها إلىٰ آخر الأرض ما كان كثيرا، قال في مسائل كتاب التوحيد: **فيها** -يعني في تلك الأحاديث- **فهم الإنسان إذا كان له هوىٰ**.

أحيانا الهوىٰ والتعصب يجعل المرء يركز ذهنه ويعكف ذهنه حتىٰ يجد مدخلا علىٰ من ينقده، قال: فهم الإنسان إذا كان له هوىٰ. هل اليهود يغارون علىٰ التوحيد؟ هم أهل الشرك، هل النصارىٰ يغارون علىٰ التوحيد؛ علىٰ توحيد الله جل وعلا حتىٰ في الألفاظ؟ يغارون؟ لا يغارون علىٰ ذلك؛ ولكن يريدون أن يجدوا مدخلا فوجدوا ذلك فانتفعنا من ذلك.

قال شيخ الإسلام وإمام هذه الدعوة: فيها فهم الإنسان إذا كان له هوىٰ. إذا كان للإنسان هوىٰ في أمر من الأمور، ونعرف أنه ما نقدني إلا لهوىٰ، فهل يعني ذلك أن أرد قوله، هذا مخالف للسنة ومخالف لوصايا الصحابة، قال ابن مسعود: ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيدا بغيضا. إذا نقدك واحد بينك وبينه خصومة أو بغضاء فاقبل منه إذا كان يصحح وضعك ويرشدك إلىٰ الحق، فأنت أولىٰ بالحق، فلا تجفل من ذلك، قد يكون فاسق من الناس يبين فيك عيبا صحيح هو فيك، تجد أنت فيه مشابهة، فيقول حتىٰ أنت تفعل كذا فتغضب منه؟ لا، صحيح جزاك الله خيرا، فيَّ هذا، وأصحح وأتوب إلىٰ الله.

كذلك قد ينقدك في أمر، قد يرد عليك فكرة، قد يعاندك وتعلم أنه ضدك؛ ولكن إذا كان يأتي بالحق فاقبل منه.

فإذن الحق يوزَن بالحق وليس بالرجال، الرجال أدوات لفهم الحق، والحق يفهم للحق.

فإذن لا تنظر إلىٰ القائل وانظر إلىٰ ما قال، فقد يكون ما قاله صحيحا في نفسه فتستفيد من ذلك.

فهْم الإنسان إذا كان له هوىٰ، صحيح يكون له هوىٰ وله رغبة في نقدك، له رغبة أن يخرج عيوبا، ولكن يعصر ذهنه ويخرج أشياء صحيحة، وينقدك بأشياء صحيحة، نرد ذلك؟ لا، المؤمن، الحكمة ضالة المؤمن أين وجدها هو أحق بها.

لهذا قال ابن مسعود: من جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيدا بغيضا، ومن جاءك بالباطل فاردد عليه وإن كان حبيبا قريبا.

كذلك من جاء بالباطل ليس لأجل مودته وقربه تقتنع بالباطل الذي جاء به؟ لا، العمدة ما هو الحق وما هو الباطل، فإذا عرفت الحق وعرفت الباطل، فمسألة هذا قريب أم بعيد هل هو محب أو مبغض هل هو معي أو ليس معي هذه مسألة لا توزن في الحقيقة، وإنما يوزن الصواب، فإذا كان الحق قُبِل، وإذا كان الباطل رُده، فإن كان الحق مع بليد بغيض أو كان الباطل مع قريب حبيب فإنه يرد، يرد الباطل ويقبل الحق ممن جاء به.

هذه لاشك تأصيل ظهرت لك أدلته من الكتاب والسنة ومن وصية ابن مسعود هذه، وهو من العلم

---

[1] انتهىٰ الوجه الأول من الشريط الثاني.

المهم الذي ينبغي؛ بل يجب الاستمساك به.

ولهذا قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من نصر قومه علىٰ غير الحق فهو كالبعير الذي رُدِّيَ في مهواة فهو ينزع بذنبه. رواه أبو داوود في سننه موقوفا ومرفوعا، ورواه أيضا الإمام أحمد في المسند.

قال الخطّابي رَحِمَهُ اللَّهُ ما حاصله: معنىٰ ذلك قد وقع في الإثم وهلك كالبعير قد تردىٰ في بئر فصار ينزع بذنبه، ولا يقدر علىٰ الخلاص.

كلمة ابن مسعود: من نصر قومه علىٰ غير الحق فهو كالبعير؛ لأنه إذا نصرتهم علىٰ غير الحق تعلم أن ما هم عليه مشتبه أو مشكوك فيه أو باطل ثم تنصرهم؛ معناه أنك تؤيدهم علىٰ ما هم فيه علىٰ الهلاك، فينبغي إذن أن ينظر في الحق وفي الباطل من حيث هما.

[الوصية الثانية عشر]

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذه من وصاياه؛ بل من كلماته التربوية العظيمة، قال مرة لإخوانه وأصحابه:

أنتم جِلاءُ قلبي،

الجلاء الذي يكون به صفاء الشيء، جلاء الأفهام يعني ما تجلىٰ به الأفهام فتكون صافية صحيحة، جلاء القلب يعني ما يكون به القلب صحيحا غير مريض صافيا غير مشوش.

قال لأصحابه: أنتم جِلاء قلبي. لِم؟ وهو المعلم وهو المربي وهم تلامذته وهم أصحابه وهم التابعون؟ كيف كان التابعون جلاء قلب صحابي من الصحابة؟ لأن المرء يحتاج كما يُحتاج إليه، المعلِّم يحتاج والمعلَّم محتاج، الصحابة رضوان الله عليهم يعلمون العلم وهم محتاجون إلىٰ من يأخذ عنهم، والتابعون وتلامذتهم -يعني تلامذة الصحابة- هم محتاجون إلىٰ علم الصحابة، المرء إنما يصلح بأصحابه فقال: أنتم جلاء قلبي؛ يعني الذين يزينون القلب، وهذا يحتاج منا إلىٰ تأمل وهو أن المرء يحتاج إلىٰ أصحاب، يعينونه علىٰ الحق والهدىٰ.

الانعزال مذموم فقد قال عليه الصلاة والسلام: «**إنما يأخذ الذئب من الغنم القاصية**» قد يظن المرء أن الانعزال فيه خير، هٰذا عند الفتن حين لا يجد من أصحابه من يعينه علىٰ الحق لأنه قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح «**فإذا رأيتم شحا مطاعا وهوىٰ متبعا ودنيا مبصرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك، فدع عنك أمر العامة، فإنه من ورائكم أيام الصبر**» إلىٰ آخر كلامه عليه الصلاة والسلام.

«**المؤمن مرآة للمؤمن**» كما صح عنه أيضا عليه الصلاة والسلام، المرء محتاج أنت محتاج لإخوانك وإخوانك محتاجون إليك، فإذا انعزلت صار ذاك سببا من أسباب الرَّان علىٰ القلب؛ لأنك إذا وجدت من هو علىٰ الحق يعينك علىٰ الهدىٰ فهو جلاء قلبك، يعينك وتعينه، تسدده ويسددك، تطيعه يطيعك، تبين له ويبين لك.

قال ابن مسعود لأصحابه: أنتم جلاء قلبي. بعض طلبة العلم قد ينعزل ويجعل نفسه مثلا مع البحث

دون أن يكون له صاحب البتة، وهذا ليس بجيد؛ بل إن الصاحب إذا كان صادقا مخلصا فإنه جلاء للقلب، كذلك الناس؛ الشاب، الكبير، الصغير، الرجل، المرأة، إذا كان لوحده أتاه الشيطان، وأما إذا معه أصحاب له ويعينونه علىٰ الهدىٰ فهم جلاء القلب الذين يبعدون عنه الشر ويجعلون الخير محببا إليه ويجعلون الشر مبغضا إليه.

الأخ يقول نقف، لا بأس نأخذ بعض الأسئلة حتىٰ نقف قبل الأذان لمن يريد أن ينصرف كما جاء الطلب في ذلك في الأسبوع الماضي.

الدرس القادم عنوانه:

الأصول الشرعية للتعامل مع الناس.

بما أن الأسبوع القادم موافق العشر الأول من ذي الحجة وربما لا يتسنىٰ للكثيرين أن يكون الدرس بعد المغرب، فنرجئها إن شاء الله تعالىٰ إلىٰ ما بعد الحج، تقبل الله جل وعلا منا ومنكم صالح العمل.

نختم هذه الكلمات في هذا الدرس، ونسأل الله أن ينفعنا وإياكم وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.

[الأسئلة]

سؤال (٥): وصية الشيطان لأبي هريرة، هل المرجع فيها وصية الشيطان أم إقرار النبي عليه الصلاة والسلام؟

الجواب: لاشك أن المرجع إقرار النبي عليه الصلاة والسلام؛ لكن كانت حقا جاء من ذاك الطريق، كما أتىٰ حقا من طريق اليهود أو النصارىٰ.

سؤال (٦): الناس درجات في القرآن ولم تذكر إلا واحدة، فما باقي تلك الدرجات؟

الجواب: هذه معلومة من حال الناس من جهة العلم والعمل، فَهُم درجات في القرآن في علمهم به وفي عملهم به وفي ترك هجران القرآن، وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عند قوله تعالىٰ في سورة الفرقان: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ قال: الناس في هجر القرآن أنواع:

- فمنها هجر تلاوته وحفظه.
- ومنها هجر تدبره وتدارسه.
- ومنها هجر تحكيمه والتحاكم إليه.
- ومنها هجر التداوي به.
- ومنها هجر تعلمه والعمل به.

هذه أنواع، الناس في ذلك درجات، منهم من يحفظ ولا يتدبر، منهم من يتلو ولا يتأمل ولا يحفظ، ومنهم من يعرض للقرآن في الأسبوع مرة يوم الجمعة، ومنهم من يقرؤه كل شهر مرة أو حسب المتيسر، ومنه من يقرأ منه رمضان، ومنهم من لا يقرؤه البتة، وهذا لاشك أنه مراتب، والله جل وعلا يحب

التوابين ويحب المتطهرين.

سؤال (٧): قول ابن مسعود: إنما هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بغيره. هل معنىٰ ذلك أن يبدأ طالب العلم بالتفسير قبل علم الحديث والفقه؟

الجواب: القرآن فيه التوحيد وفيه الفقه، والسنة مبينة للقرآن والعلوم متصلة، من تفقه في دين الله، تفقه في التوحيد، تفقه في الحلال والحرام، تأمل القرآن وفسره من جهة التفسير، فإنه قد شغل نفسه بالقرآن؛ لكن إن ترك ذلك فإنه شغل نفسه بغير القرآن.

سؤال (٨): بعض طلاب العلم تراهم من المجتهدين في الطلب بما يظهر؛ لكن عندما تنظر إلىٰ أثره في مجتمعه أو في بيته فلا تجد له أثرا، بل ربما يكون من أهل بيته علىٰ منكرات كبيرة، ويكون آخر من يعلم به، وهو من المجتهدين في العلم في حفظ النصوص والمتون، وهو ممَّن إذا شوهِد تُذكِّر القول المأثور: اللّٰهمَّ إنا نشكو إليك ضعف التقي. وهل من توجيه حول هذا؟

الجواب: هذا من القصور؛ لأن الواجب علىٰ طالب العلم أن يكون همه الدعوة في كل حال، فطلب العلم تقوىٰ وصلاح لمن صلحت نيته، كذلك إذا حصل في بيته يعلم العلم يدعو إلىٰ الخير والهدىٰ، لا يحسس أولئك أنه في انعزال أنه في وادي وهم في وادي؛ بل يتحدث إليهم ويتقرب إليهم ويدعو أهل بيته.

نعم إن من تخصص في العلم ودرس العلم علىٰ مستوىٰ معين في مثل حفظ المتون وبيان للشروح إلىٰ آخره، قد لا يستأنس لأنْ يتكلم مع مثلا النساء والأطفال بأمور تناسب مستواهم، وإنما يريد أن يتكلم بالمستوىٰ الذي يقرؤه؛ لكن هذا يحتاج إلىٰ تعوُّد إذا تعوَّد أن ينزل من الناس بالمستوىٰ الذي هم فيه خاطب كلا بما هو فيه، وهذا هو حقيقة الدعوة، وقد قال جل وعلا: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩﴾[آل عمران]. وقال أبو عبد الله البخاري: الربانيون هم الذين يعلمون الناس صغار العلم قبل كباره. الرباني الذي يربي شيئا فشيئا حتىٰ يثبت، أما أن ينعزل، طالب العلم ينعزل عن التأثير حتىٰ في بيته لاشك أن هذا من المتناقضات الغريبة.

سؤال (٩): ما هي الكتب التي من خلالها يحصل الفقه في الصلاة؟

الجواب: كل ذكر من أذكار الصلاة من دعاء الاستفتاح إلىٰ آخره لاشك أنه وردت السنة، وسورة الفاتحة معناها في التفسير، فبيان ذلك في شروح الأحاديث وفي كلام العلماء.

ولي في ذلك رسالة بعنوان «تفسير ألفاظ المصلي»، لعلها تطبع إن شاء الله تعالىٰ قبل نهاية الصيف القادم «**تفسير ألفاظ المصلي**».

سؤال (١٠): ما حكم قراءة القرآن بغير تدبّر، وما حكم قراءة القرآن عن حفظ وهو جنب؟

الجواب: أما الأول فإن قراءة القرآن الأفضل فيها أن تكون بتدبر وتأمل.

قد تنازع العلماء هل كثرة القراءة أفضل أم قلة القراءة مع التدبر؟

فقالت طائفة قلة القراءة مع التدبر أفضل؛ لأن ذلك كان هدي الصحابة رضوان الله عليهم، قد قال السُّلَمي حدثونا الذين كانوا يقرئوننا القرآن أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن حتىٰ يعلموا ما

فيهن من العلم والعمل. وابن عمر رضي الله عنه روي عنه أنه مكث في تعلم سورة البقرة سبع سنين أو نحو ذلك، فقراءة القرآن بالتدبر ولو طال الزمن قالوا ذاك أفضل، لهذا قالوا: من يردد سورة الزلزلة مثلا وهو يتأمل فيها أفضل من أن يقرأ أكثر من ذلك.

والقول الثاني من أقوال أهل العلم أن كثرة القراءة أفضل؛ لأن له بكل حرف عشر حسنات كما قال عليه الصلاة والسلام: «**لا أقول (الم) حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف**» وإذا كان كذلك كلما قرأ كانت الحسنات أكثر.

والصواب في ذلك التفصيل، وهو أن من يقرأ القرآن وهو يعلم معانيه فإنه لا حرج عليه أن يكثر القراءة ويقل التأمل والتدبر، ولهذا كان بعض السلف يختمون القرآن في يوم أو في ليلة، صح عن عثمان رضي الله عنه أنه ختم القرآن في ليلة قام بالقرآن كله في ركعة، وصح أيضا عن جماعات من السلف أنهم قرؤوا القرآن في أقل من ثلاث، قال الحافظ زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي رحمه الله: هذا محمول لمن لم يكن هذا ديدنه، وإنما وافق وقتا فاضلا أو مكانا فاضلا فأراد كثرة الحسنات في كثرة القراءة. كأن وافق مكة أو عشر ذي الحجة أو رمضان أو نحو ذلك.

وهذا التفصيل أصح لأنه يجوز ذلك بعض الأحيان؛ ولكن لا يتعمد دائما أن تكون قراءته بلا تدبر؛ بل يكثر إذا كان في أوقات فاضلة، أكثر من القراءة لتعظيم الحسنات، فإذا كان في غير ذلك فإنه يقرأ القرآن ويتدبره، والتدبر عمل القلب وهو مأجور عليه.

قراءة القرآن من الحفظ وهو جنب؟

الجنب لا يجوز له أن يقرأ القرآن إلا في نفسه، أما بالتلفظ فلا يجوز له ذلك، أما في قلبه فقال العلماء: لا بأس بذلك.

سؤال (١١): هل هذا الكلام صواب: ما نكفر من أهل القبلة بذنب ما لم يستحلَّه. وهل هذا القيد الوحيد في المنع من تكفير عباد الله أما هناك ضوابط أخرىٰ؟ أرجو أن تطيِّب خاطري بالإجابة عن هذا السؤال.

الجواب: أولا لابد أنك تحسن النقل (ما نكفر من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله) التركيب أعجمي؛ يعني التركيب غير صحيح، والعبارة التي يقولها أهل السنة (ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله).

ومرادهم بالذنب هنا المعاصي، ولا يدخلون فيها أصول الإسلام، ولهذا بعض أهل العلم استدل بذلك علىٰ أنْ كل الذنوب، يدخل في ذلك كل الذنوب فلابد من الاستحلال الذي هو اعتقاد القلب التكذيب، هذا باطل غير صحيح.

وكلام العلماء هنا (لا تكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله) يعنون بها الذنوب التي كانت تكفر بها الخوارج، مثل الزنىٰ وشرب الخمر والسرقة ونحو ذلك من كبائر الذنوب، لا يدخل في ذلك أنواع ما تحصل به الردة من قول أو عمل أو اعتقاد.

سؤال (١٢): سبق أن قلتم في المحاضرة الماضية أن الأعمال من جنس الإيمان فنرجوا أن توضحوا لنا ذلك، علما أن كلامكم قد التبس علىٰ بعض الحاضرين تبرئة للذمة؟

الجواب: جزاك الله خيرا، براءة الذمة طيبة، أما أن الأعمال من جنس الإيمان بهذا التركيب، فأنا لا أقوله، وهو نقل أو فهم خطأ.

الأعمال داخلة في مسمىٰ الإيمان، فالإيمان عند أهل السنة قول وعمل واعتقاد أركانه ثلاثة؛ القول والعمل والاعتقاد.

فالأعمال ركن من أركان الإيمان ماذا يقصد بالعمل هنا؟ المقصود به جنس العمل، الأعمال ركن الإيمان، فمن لم يعمل ليس بمؤمن هو كافر.

ماذا يقصد هنا بقول من لم يعمل؟ يعني من ترك جنس العمل لم يعمل خيرا قط وهٰذا بالاتفاق، والخلاف جارٍ في الصلاة يعني بين أهل السنة هل يكفر بمجرد ترك الصلاة تكاسلا وتهاونا أم لا يكفر، لكن القدر الأول متفق عليه.

الكفار ما يخرجون من النار.

سؤال (١٣):هل هذا الكلام صحيح: نحب المرء علىٰ قدر إيمانه ونبغضه علىٰ قدر معاصيه وهل هذا علىٰ إطلاقه أم لا؟

الجواب: كما قال جل وعلا: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾[التوبة:٧١] فمعنىٰ ولاية المؤمن للمؤمن أنه يحبه ويوده وينصره، وهذه الولاية حسب الإيمان قال: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾، ومن المتقرر عند أهل السنة والجماعة أن الإيمان يتبعّض، ينتج عن ذلك أن الولاية والنصرة تتبعض، فمن كان إيمانه أكمل كانت وَلايته أكبر.

فإن يجتمع في المعين الحب والبُغض في المعين العاصي يجتمع فيه الحب والبغض، المودة وغير المودة، يجتمع فيه ذلك؛ لأنه أطاع وعصىٰ.

وهكذا كل الناس إذا نظرت إلىٰ ما به من الإيمان والخير أحببته ونصرته، وإذا نظرت إلىٰ ما فيه من المعصية والشر والبدعة أبغضته.

هذا من جهة ما في القلب ومن جهة الموالاة العامة.

فإذن هذا الكلام صحيح في أن المرء في محبته وموالاته لإخوانه المؤمنين يكون ذلك بحسب إيمانه لأن الإيمان متبعض فالولاية والنصرة متبعضة.

سؤال (١٤): هذه طريقة في الأسئلة كثير ما تأتي وأنا لا أريد أن تأتي مرة أخرىٰ يقول: أناشدك بالله يا أخانا سعد أن تسلم هذا السؤال وذلك لمسيس الحاجة إليه، وأنتم تعرفون يحفظكم الله ما جاء فيمن كتم العلم.

مثل هذه الطريقة ما ينبغي أن تكون بيننا الذي عنده سؤال يسأل بدون أن يسأل بالله أو أن يناشد بالله، إذا تمكننا من الإجابة سنجيب إذا لم نتمكن من الإجابة فلا نجيب، قد يكون للمتكلم رأي مصلحة في أن

لا يجيب عن بعض الأسئلة، قد تكون بعض الأسئلة ما عنده فيها وضوح، ما يعرف خوافي المسألة، فإذا نوشد بالله أن يجيب علىٰ كل سؤال صار هذا تحريجًا له، ولا ينبغي للمؤمن أن يحرّج أخاه المسلم ولا يضعه في الحرج.

السؤال: ما رأيكم في المجلة الجديدة واسمها السلفية لصاحبها أبي يوسف الأثري؟

الجواب: أنا رأيت منها عددا واحدا، فقد كتب فيه عدد من العلماء، ومقتضىٰ مشاركة العلماء في تلك المِجلة أنهم يزكونها إذ المشاركة المقصودة فرع في الغالب عن التزكية.

سؤال (١٥): وقد كثرت مقولة بفضل فلان وبجهود فلان ونسبة ذلك للبشر، ونسوا رب البشر وإنا لنحزن بذلك، نريد علاجا لإنقاذ الناس من تلك الأفكار.

الجواب: العلاج ما يكون بكلمات، العلاج يكون بدعوة وعمل وإصلاح، وتلك الكلمات لا شك أنها تكون علىٰ ألسنة من لم يعظم الله جل وعلا في كل حال، قد يلتفت القلب علىٰ الله جل وعلا فيقول مثل تلك الكلمات؛ أن هذا بفضل فلان، والواجب أن يقول: هذا بفضل الله ثم بفضل فلان؛ لأن فلانا سبب من الأسباب، ومن الذي جعله سببا؟ إنه رب العالمين سبحانه فلو محىٰ الله سبحانه فلانا أن يكون سببا لما حصل، ولهذا الفضل أولا وأخيرا لله جل وعلا علىٰ الحقيقة، فإنه الذي سخر بعض عباده لخدمة بعض، فسخر فلانا وفلانا ليسروا السبيل علىٰ الآخرين.

المحمود علىٰ الحقيقة هو الله جل وعلا، والعباد يُشكرون علىٰ ما فعلوا الواجب والمستحب وما قدموا من خير إمتثالا بقول النبي عليه الصلاة والسلام: «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**» فشكر الناس علىٰ ما أدوا من واجب أو من معروف فإنهم يشكرون علىٰ ذلك وشكرهم علىٰ ذلك واجب أو مستحب ومن عمل معك معروفا فكافئه، والفضل أولا وأخيرا لله جل وعلا .

سؤال (١٦): نلاحظ علىٰ بعض الحضور –هداهم الله– عند دخول المسجد عدم صلاة تحية المسجد هل من كلمة توجيه؟

الجواب: تحية المسجد الصحيح عندنا أنها سنة مؤكدة وليست بواجبة، وذلك لِدلالة حديث الثلاثة الذين دخلوا علىٰ النبي ﷺ وهو في المسجد فجلس أحدهم وتأخر الثاني وانصرف الثالث، ولم يذكر أنهم صلوا تلك التحية، وتحية المسجد مأمور بها وهي مؤكدة، فمن دخل المسجد فعليه أن يمتثل لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «**إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتىٰ يصلي ركعتين**» فامتثاله من المندوب ومن السنن المؤكدة التي جاء الأمر بها، فعلىٰ الإخوة أن يتحرَّوا الفضل وأن لا يجلسوا إلا بعد أداء التحية.

سؤال (١٧): هذه رسالة ما شاء الله، الرسالة هذه تعرض لمشكلة نعالجها إن شاء الله في أحد الدروس.

سؤال (١٨): حصل إشكال من الفهم؛ من فهم ما قلتَ: أن من ينتقد الآخرين ويرد علىٰ أخطائهم وعيوبهم فإن في قلبه هوىٰ –كما قال شيخ الإسلام– علىٰ قصة اليهود.

الجواب: مشكلة الشباب أنهم لا يفهمون الكلام، كثير منهم ما يفهم الكلام بحسب العبارة.

وأقعد هنا قاعدة وسأذكرها في درس إن شاء الله بعنوان: «قواعد القواعد».

لكن نذكرها هنا للمناسبة: وهي أن فهم كلام المتكلم له أصوله أن تفهم الكلام أولا بدلالة الألفاظ، فإن الألفاظ أوعية للمعاني، الألفاظ لها وظائف، وما استعمل اللفظ إلا لوظيفة يعني يؤديها ذلك، وهذه الوظيفة تفهم علىٰ أصول العلم، لا علىٰ ما يقع في ذهن المستمع ممن قد لا يشارك المتكلم في القاعدة العلمية.

إذن الألفاظ تُفهم علىٰ قواعد العلم، هٰذا واحد.

الثاني أن تفهم الدِّلالة الحملية للمتكلم، أحيانا يكون لفظ إذا بُتِرَ عما قبله وعما بعده أسيئ فهمه؛ ولكن إذا بقي بسياقه بأوله وآخره حسن وصار الكلام صوابا.

لهذا إذا سمعت كلمة في شريط أو قرأتها في كتاب فلا تنظر إليها مجردة؛ لأن الكاتب أو المتحدث قد يخونه التعبير؛ لكن يعني هذا القول لا يعنيه، تنظر في الدلالة الحملية يعني ما يحمل عليه الكلام أو ما يفهم من السياق من سباق الكلام ولحاقه، فإذا تأملت أوله وآخره اتضح لك المعنىٰ.

ولهذا ينبغي أن يكون الذي يسمع الكلام أن ينظر إلىٰ المعنىٰ، ولا يبادر بالإنكار حتىٰ يتأمل أوله وآخره، وإذا لم يكن من أهل العلم أو لم يكن طالب علم واستشكل يسأل المتكلم أو يسأل من يفقه من أهل العلم أو من الإخوان أو من طلبة العلم يبين له معنىٰ الكلام.

فإذا كان التعبير غير صواب فينصح هذا ويبين له، وطلبة العلم رجّاعون إن شاء الله إلىٰ الحق .

من نقد غيره قد يكون من ذوي الهوىٰ، وقد يكون من ذوي السداد.

قد يكون الذي حمله علىٰ النقد أنه يُبغض هذه الطائفة أو أنه يتحزب ضدها أو أنه في نفسه علىٰ فلان شيئا.

وقد يكون ليس في نفسه شيئا، وإنما أراد بيان الحق.

كلام شيخ الإسلام كلام إمام هذه الدعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان الطائفة الأولىٰ؛ أنه يكون في النفس هوىٰ فتعمل لإخراج العيوب علىٰ فلان أو علىٰ الطائفة الفلانية أو علىٰ الكتاب الفلاني، هل يعني هذا أن يرد لأن في نفسه هوىٰ ليس هذا بمرْضي ولا موافق للسنة، وإنما يقبل، هواه يحاسبه عليه رب العالمين.

والمرء إذا كان مقصده في النقد ليس لإعلاء كلمة الله وإنما لشيء في نفسه يريد إنقاص الآخرين، فإن هذا يحاسب عليه رب العالمين؛ لكن المؤمن أحق بالحكمة أنا وجدها فليأخذها وهو أحق بها، «**والحكمة ضالة المؤمن**» كما قال عليه الصلاة والسلام.

إذن كلامنا كان في أحد القسمين من الناس من ينقد ويرد ويكون خاليا بتوفيق الله جل وعلا له من الهوىٰ.

إذا نظرت مثلا إلىٰ التعصبات التي حصلت في المذاهب المختلفة، المذاهب المتبوعة في الفقه أو في

بعض المسائل في الأصول أو في الحديث أو غير ذلك، بعض التعصبات تنتج لك أنواعا من العلوم، فتعصب الشافعية مثلا للشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعلهم يخرجون كتبا مهمة، حرّكهم إليها الرغبة في نصرة الشافعي، الحنابلة أخرجوا كتبا لا مهمة مما حرك بعضهم إليها محبة ذلك الإمام والرغبة في نصرته، الحنفية جعلوا للإمام أبي حنيفة مسندًا؛ بل جعلوا الإمام أبا حنيفة أو من صنف في التصريف، فهناك كتاب يسمىٰ المقصود في التصريف لأبي حنيفة منسوب لأبي حنيفة حتىٰ يقال: إن أبا حنيفة هو أول من صنف في التصريف، الكتاب نفيس فيه تسهيل وتبيين قواعد في ذلك.

وهكذا التعصب يُظهر الأشياء، الهوىٰ يُظهر أشياء، نقبل ما جاءنا من الحق وما استفدناه، وذلك يحاسبهم عليه رب العالمين.

هذا ما قصدناه، نعم من الناس من يكون مخلصًا في قصده، مخلصا في كلامه، متحريا للصواب بعيدا عن الردىٰ، بعيدا عن الفجاجة في القول، يقول الحق وإن كان مرًّا؛ لكن ديدنه في ذلك رغبة إلا لأنه خالف الحق؛ ولكن يريد أن يكون الناس جميعا مطيعين للحق جل وعلا، هذا موجود ولكنهم عزيزون.

نسأل الله جل وعلا أن يقينا وإياكم شرور أنفسنا.

كان الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما ذكر عنه ابن مفلح في «الآداب الشرعية» كان يدعو في سجوده فيقول: اللّٰهمَّ إن قبلت فداء لعصاة أمة محمد فاجعلني فداء للعصاة من أمة محمد من النار؛ يعني إن كان هناك من سيجعل فداء للعصاة يعذب وينجون فاجعلني ذاك الرجل، هذه مرتبة ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾[فصلت].

... هٰذا اعتراض عليّ أم علىٰ الإمام أحمد؟

علىٰ الإمام أحمد يعني، إذا لقيته يوم القيامة اسأله إن شاء الله.

صلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد.